

بالتسليم ، ويتركوا العالم حراً يسير وحده دون أن يعوقه عائق ، وما نخال كل عاقل  
الا ويعتقد ان صحيح النقل لا يخالف صريح العقل والله أعلم

## الشمعو بيته<sup>(١)</sup>

يقوى تفاخر كل عنصر بعنصرهم ، وأهل كل جنس بجنسهم كلما كانوا أقرب  
الى اللهجية والمصبية الجاهلية . جاء الاسلام فسكان من أعظم اصلاحه اسقاط  
دعوى الجنسيات أو القضاء على التفاخر بالأباء والاجداد فساوى بين العربي  
والفارسي والاحمر والاصفر والابيض والاسود وكانت قاعدته العامة أن لا فضل  
لعربي على عجمي الا بالتقوى

والظاهر أن دعوى الشموعية أى عدم الاستعداد بالعرب وتمضييل المعجم  
عليهم دخلت بدخول أجيال كثيرة من الفرس والترك والنبط في خدمة الدولة  
الاسلامية فنشأت منها المداوات بين العرب أهل الدولة وبين المعجم كما كانت تنشأ  
في هذه البلاد بين تركي وعربي كلما اشتد الاول في ارهاق الثانى

سألنا استاذنا الشيخ طاهر الجزائري عن الشموعية فكتب الينا ما يأتى « اما  
الرمي الذي ظهرت فيه الشموعية فلا يحضرني فيه شيء . والوقوف على أوائل  
الاشياء من أصعب المسائل وأدقها . الا ان الذي ظهر لي أن ذلك حدث بعيد عصر  
الخطباء الراشدين لوجود الداعي الى ذلك وهو التفاخر بالجنس الذي هو من عادات  
الجاهلية اتى ائى الدين باطائها . ومن نظر لمنزلة سلمان الفارسي وصهيب الرومي  
وبلال الحبشي في أوائل الأمة زال عنه الشك في هذه المسألة ، ولا يدخل في هذا  
الامر بحث المؤرخ عن خصائص الاجناس مما يقصد به الوقوف على الحقائق ؛  
فان هذا نوع آخر الا أن من بحث عن أحوال الامم ووفي النظر حقه تبين له أن  
العرب في الجملة لا تسامهم أمة البتة

« وأظن أن لا بد ان تؤلف بعد حين كتب في خصائص الأمم وكتب في  
خصائص البلاد ، كما ألفت كتب في خصائص اللغات ، وتجعل من الفنون التي يعنى

بها وتميز من غيرها ولا تذكر بطريق العرض ، إلا ان فن خصائص الأهم تتيسر المشاغبة فيه والمغالطة أكثر من غيره وكل فن وضعت مقدماته ونقحت مسأله ويبدأ بسرعة عوار المغالط فيه . هذا وكما حدث بعد عصر الخلفاء أمر المناضلة بين العرب والمعجم حدث أمر المناضلة بين المدنانية والتحطانية ، وهما الفريقان اللذان يجمعهما اسم العرب ونشأ بسبب ذلك من الفتن ما يعرفه المولع بالأخبار ولم يزل أثر ذلك باقياً في بعض الجهات الى ما قبيل عصرنا وقد رأيت في بعض البلاد أناساً يقولون الى الآن نحن قيسية وآخرين يقولون نحن يمانية .

هذا مقاله أستاذنا وفيه من كشف التامض ما لم نظهر به في كتاب . والشعوبي بالضم محقر أمر العرب قال ابن منظور وقد غلبت الشعوب بلفظ الجمع على جيل المعجم حتى قيل لمحققر أمر العرب شعوبي أضافوا الى الجمع لغلبيته على الجيل الواحد كقولهم أنصاري وهم الشعوبية وهم فرقة لا تفضل العرب على المعجم ولا ترى لهم فضلاً على غيرهم وأما الذي في حديث مسروق ان رجلاً من الشعوب أسلم فكانت تؤخذ منه الجزية فامر عمر أن لا تؤخذ منه قال ابن الأثير الشعوب ههنا المعجم ووجهه أن الشعب ما تشعب من قبائل العرب أو المعجم فخص بأحدهما ويجوز أن يكون جمع الشعوبي كقولهم اليهود والمجوس في جمع اليهودي والمجوسي قال شارح المفصل في شرح قول الزمخشري « الله احمد على أن جعلني من علماء العربية وجعلني على الغضب للعرب وللعصبية وأبي لي أن أنفرد عن صميم أنصارهم وامتاز وانضوي الى لفيف الشعوبية وانجاز » والشعوبية مصدر الشعوبي بضم الشين وهو الذي يصغر شأن العرب ولا يرى لهم على المعجم فضلاً اذ الفضل بالتقوى وهو منسوب الى قوله تعالى ( وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا أن اكرمكم عند الله أتقاكم ) . وقال ابن الحاجب في شرح المفصل أيضاً والشعوبية بضم الشين قوم متعصبون على العرب مفضلون عليهم المعجم وان كان الشعوب جيل المعجم إلا أنه غلبت النسبة اليه لهذا القبيل ويقال أن منهم معمر بن المثنى وله كتاب في مثالب العرب وقد انشد بمض الشعوبية للصاحب بن عباد يمدحه

غنينا بالطبول عن الطلول وعن عنس عذافرة ذمول

فاست بتاركه ايوان كسرى لتوضح أو لحومل فالدخول

وضب بالفلأ ساع وذئب بها يعموى وليث وسط غيل  
اذا نحرروا فذلك يوم عيد وان ذبحوا فنى عرس جليل  
يساون السيوف لرأس ضب هراشاً بالغداة وبالاصيل  
بأية رتبة قدمتموها على ذى الاصل والشرف الاصيل  
أما لو لم يكن للفرس الا نجار الصاحب العدل الجليل  
لكان لهم بذلك خير عز وجيلهم بذلك خير جيل  
فقال له الصاحب قدك ثم قال لبديع الزمان أجبه فاجابه مرتجلاً .  
أراك على شفا خطر مهول بما أودعت رأسك من فضول  
طلبت على مكارمنا دليلاً متى احتاج النهار الى دليل  
ألسنا الضار بين جزى عليكم فان الجزى اقعد بالدليل  
متى قرع المنابر فارسى متى عرف الأغر من الحجول  
متى علقت وأنت بها زعيم اكف الفرس أعراف الخيول  
نحرت بملء ما ضعفتك فخراً على قحطان والبيت الاصيل  
فخرت بان مأكولا ولبساً وذلك فخر ربات الحجول  
تفاخرهن فى خد أسيل وضرع من مفارقة وسيل  
فقال الصاحب للشعوبي . كيف ترى فقال . لو سمعت ما صدقت ثم قال له .

جائزتك جوازك ان وجدتك بعدها فى مملكتى ضربت عنقك  
وفد النعمان بن المنذر على كسرى فوجد عنده وفود الروم والهند والصين  
فذكروا من ملوكهم وبلادهم ، فافتخر النعمان بالعرب ، وفضلهم على جميع الامم  
لا يستثنى فارساً ولا غيرهم فقال كسرى وأخذته عزة الملك ، يا نعمان لقد فكرت  
فى أمر العرب وغيرهم من الامم فرأيت الروم كذا ووصف من حالهم وجعل  
يثنى عليهم ورأيت الهند التى لها كذا وكذا ثم قال مثل ذلك فى الترك والخزر  
والصين متى ذكر قبيلة أثنى عليها ووصف ما يفتخرون به ثم قال . ولم أر للعرب  
شيئاً من خصال الخير وجعل يصف شأنهم وهو يحقرهم ويصغرهم فقال النعمان .  
أصلح الله الملك وجعل يثنى عليه ثم قال . ألا ان عندي جواباً فى كل ما نطق به  
الملك فى غير رد عليه ، ولا تكذيب له ، فان آمنى من غضبه نطقته به قال كسرى

فانت آمن فقال النعمان . أما أمتك أيها الملك فليست تنازع في التفضل لموضعها  
الذي هي به في عقولها وأحلامها وبسطة محلها . ومحبوبة عزها ، وما أكرمها الله  
به من ولاية آبائك وولايتك ، وأما الأمم التي ذكرت فأى أمة تقرنها بالعرب  
الافتلتها قال كسرى : بماذا قال النعمان بعزها ومنعتها ، وحسن وجوها ، ودينها  
وبأسها وسخائها ، وحكمة أسنها ، وشدة عقولها وأنقتها ووفائها ، فأما عزها  
ومنعتها فانها لم تنزل مجاورة لأبائك الذين دوخوا البلاد ، ووطدوا الملك وقادوا  
الجنود ، لم يطمع فيهم طامع ، ولم ينالهم نائل ، حصونهم ظهور خيولهم ، مهادهم  
الأرض وسقفهم السماء ، وجنتهم السيوف ، وعدتهم الصبر ، اذ غيرها من الأمم  
انما عزها الحجارة والطين وجزائر البحور

وأما حسن وجوها وألوانها ، فقد تعرف فضلهم في ذلك على غيرهم من  
الهند المتحرقة ، والصين المحتتمة ، والترك المشوهة ، والروم المقشورة ، وأما  
احسابها وأنسابها ، فليست أمة من الأمم الا وقد جهات آباءها وأصولها وكثيراً  
من أولها وآخرها ، حتى ان أحدهم يسأل عما وراء أبيه دنيا فلا ينسبه ولا يعرفه  
وليس أحد من العرب الا يسمى آباءه أباً أباً حفظوا بذلك احسابهم ، وضبطوا  
به أنسابهم فلا يدخل رجل في غير قومه ، ولا ينتسب الى غير نسبه ، ولا يدعى  
الى غير أبيه وأما سخاؤها فان أدناهم رجلا الذي يكون عنده البكرة أو الناب  
عليها بلاغه في حمولته وشبعه وريه فيطرقة الطارق الذي يكتفى بالفلذة ويجتزىء  
بالشربة فيمقرها له ويرضى أن يخرج له من دنياه كلها فيما يكسبه حسن الاحدوثة  
وطيب الثناء

وأما حكمة السنن فان الله اعطاهم في أشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه  
وقوافيه مع معرفتهم بالإشارة وضرب الأمثال وابلانهم في الصفات ما ليس  
لشيء من السنة الاجناس ثم خيلهم أفضل الخيول ونساؤهم اعف النساء ولباسهم  
أفضل اللباس ، ومعادنهم الذهب والفضة والحجارة جواهرهم الجزع ومطايهم التي  
لا يبعد عن مثلها سفر ، ولا يتقطع بمثلها بلد قفر

وأما دينها وشريعتها فانهم متمسكون بها حتى يبلغ أحدهم من تمسكه بدينه  
ان لهم شهراً حراماً وبلداً حراماً وبيتاً محجوجاً ينسكون فيه مناسكهم وينبجون

ذبايحهم فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه وهو قادر على أخذ ثاره وإدراك دمه فيحجزه كرمه ويمنعه دينه عن تناوله بالأذى وأما فائزها فان أحدهم يلاحظ اللحظة ويومي الأيما فهي الب وعقد لا يحلها الا خروج نفسه وان أحدهم ليرفع عدداً من الأرض فيكون رهناً بدينه فلا يفلق رهنه ولا تخفر ذمته وان أحدهم ليبلغه ان رجلا استجار به وعسى أن يكون نائياً عن داره فيصاب فلا يرضى حتى تقضى تلك القبيلة التي اصابته أو تقضى قبيلته لما خفر من جواره وانه ليلاجأ اليهم المجرم المحروب من غير معرفة ولا قرابة ، فتكون أنفسهم دون نفسه ، وأموالهم دون ماله ، وأما قولك أيها الملك انهم يئدون أولادهم من الحاجة فانما يفعل من يفعله منهم بالأثاث أنفة من المار ، وغيره من الأزواج ، وأما تحاربهم ، وأكل بعضهم بعضاً وتركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم فانما يفعل ذلك من يفعله من الأمم اذا آنت من نفسها ضعفاً وتخوفت نهوض عدوها اليها بالزحف وانه انما يكون في المملكة المظلمة أهل بيت واحد يعرف فضاهم على سائرهم فيلقون اليهم أمورهم وينقادون اليهم بأزمهم

فأما العرب فان ذلك كثير فيهم حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكاً أجمين ، مع أنهم من أداء الخراج والوطء والمسف فمجب كسرى مما أجاهه النعمان به وقال : انك لأهل لموضعك من الرياسة في اقليمك ولما هو أفضل . ثم كساه من كسوته وسرحه الى موضعه من الحيرة . فاما قدم النعمان الحيرة وفي نفسه ما فيها مما سمع من كسرى من تنقيص العرب وتهجين أمرهم بمث الى ا كثم بن صيفي وحاجب بن زرارة وجماعة من رؤوس العرب سماهم فلما قدموا عليه في الخورنق قال لهم : قد عرفتم حال هذه الأعاجم وقرب جوار العرب منهم وقد سمعت من كسرى مقالة أتخوف أن يكون لها غدر ، واقتنع عليهم مقالة كسرى وما رد عليه فقالوا : وفقك الله أيها الملك ما أحسن ما رددت عليه وابلغ ما حججته به فرنا بأمرك وادعنا الى ما شئت قال النعمان انما أنا رجل منكم وانما ملكك وعزرت بمكانكم وبما يتخوف من ناحيتكم وليس شيء أحب الى مما سدد الله به أمركم ، واصباح به شأنكم والرأي ان تسيروا بجماعتكم أيها الرهط وتنطلقوا بكتابي هذا الى باب كسرى ، فاذا دخلتم عليه نطق كل واحد منكم بما حضره ، ليعلم أن

العرب على غير ما ظن أو حدثته به نفسه . ووصاهم بوصايا فذهب به اليه وقد ساق  
القصة صاحب العقد وأوردها البلوي في كتاب الف با

\*  
\* \*

ومن حجة الشعوبية على العرب ان قالت انا ذهبنا الى العدل والتسوية وان  
الناس كلهم من طينة واحدة وسلالة رجل واحد واحتججنا بقول النبي عليه  
الصلاة والسلام : المؤمنون اخوة تتكافأ دماؤهم ، ويسمى بذمتهم أدناهم ، وهم  
يد على من سواهم . وقوله في حجة الوداع وهي خطبته التي ودع فيها أمته وختم بها  
نبوته : أيها الناس ان الله اذهب عنكم نخوة الجاهلية ونخرها بالآباء . كلكم لآدم  
وآدم من تراب ، ليس لعربي على عجمي فضل الا بالتقوى . وهذا القول من  
النبي عليه الصلاة والسلام موافق لقول الله تعالى ( ان أكرمكم عند الله أتقاكم )  
فأبيتم الا نفراً ، وقتلتم لا تساويننا وان تقدمتمنا الى الاسلام ، ثم صليت حتى تصير  
كالخبي وصمت حتى تصير كأوتار ، ونحن نساعدكم ونجيبكم الى الفخر بالآباء الذي  
نباكم عنه نبيكم صلى الله عليه وسلم إذ أبيتم الا خلفه ، وانما نجيبكم الى ذلك  
لا تباغ حديثه وما أمر به صلى الله عليه وسلم فترد عليكم حججتكم في المناخرة ونقول :  
أخبرونا ان قالت لكم العجم هل تمدون الفخر كله ان يكون ملكاً أو نبوة فان  
زعمتم أنه ملك قالت لكم : وان لنا ملوك الأرض كلها من الفراعنة والتماردة  
والمهالقة والأكاسرة والقياصرة ، وهل ينبغي لأحد أن يكون له مثل ملك  
سليمان الذي سخرت له الأنس والجن والطيور والريح وإنما هو رجل منا أم هل  
كان لأحد مثل ملك الاسكندر الذي ملك الأرض كلها وبلغ مطلع الشمس  
ومغربها ، وبني ردماً من حديد ساوى به بين الصديقين وسجن وراءه خلقاً من  
الناس تربى على خاق الأرض كلها كثيرة لقول الله عز وجل ( حتى اذا فتحت  
يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ) فليس شيء أدل على كثرة عددهم  
من هذا ، أو ليس لأحد من ولد آدم مثل آثاره في الأرض ولو لم يكن له الا  
منارة الاسكندرية التي أسسها في قعر البحر ، وجعل في رأسها مرآة يظهر البحر  
كله في زجاجتها وكيف ومنا ملوك الهند الذين كتب أحدهم الى عمر بن عبد العزيز

من ملك الاملاك الذي هو ابن الف ملك والذي تحته بنت الف ملك والذي في مرابطة الف فيل والذي له نهران ينبتان العمود والقرية والجوز والكافور والذي يوجد ريجه على اثني عشر ميلا الى ملك العرب الذي لا يشرك بالله شيئاً أما بعد فاني أردت أن تبصرت الى رجلا يعالني الاسلام ويوقفني على حدوده والسلام . وان زعمتم أنه لا يكون الفخر الا بنبوة فان منا الأنبياء والمرسلين قاطبة من لدن آدم ما خلا أربعة هوداً وصالحاً واسماعيل ومحمداً ومنا المصطفون من العالمين آدم ونوح وهما المنصران اللذان تفرع منهما البشر فنحن الأصل وأنتم الفرع وانما أنتم غصن من أغصاننا فقولوا بعد هذا ما شئتم وادعوا

ولم تزل للأمم كلها من الأعاجم في كل شق من الارض ماوك تجممها ومدائن تضمها ، وأحكام تدين بها ، وفلسفة تنتجها وبدائع تفتقها في الأدوات والصناعات مثل صنعة الديباج وهي أبداع صنعة ، ولعب الشطرنج وهي أشرف لعبة ، ورمانة القبان التي يوزن بها رطل واحد ومائة رطل ، ومثل فلسفة الروم في ذات الخلق والقانون والاسطرلاب الذي يعدل به النجوم ، ودوران الافلاك وعلم الكسوف ، لم يكن للعرب ملك يجمع سوادها ، ويضم قواصمها ، ويقمع ظالمها ، وينهي سفهها ، ولا كان لها قط نتيجة في صناعة ، ولا أثر في فلسفة الا ما كان من الشعر وقد شاركها فيه العجم ، وذلك أن للروم أرقاماً عجيبة قائمة الوزن والعروض فما الذي تفخر به العرب على العجم ، فانما هي كالدباب العادية ، والوحوش النافرة ، يأكل بعضها بعضاً ، ويغير بعضها على بعض ، فرجالها موثوقون في حلق الاسر ، ونساؤها سبايا مردقات على حقائب الابل ، فاذا أدركهن الصريح استنقذن بالعشى ، قال بجير يعير العرب باختلافها في النسب واستحقاقها للأدعياء ،

زعمتم بان الهند أولاد خندف وبينكم قرى وبين البرابر  
وديلم من نسل بن ضبة ناسل وبران من أولاد عمرو بن عامر  
فقد صار كل الناس أولاد واحد وصاروا سواء في أصول العناصر  
بنو الأصغر الأملاك أكرم منكم وأولى بقرابنا ملوك الأكاسر  
أطمع في صهري دعياً مجاهراً ولم تر سترأ عن دعى مجاهر  
وتشتم لثوماً رهطه وقبيله وتعدح جهلاً طاهراً وابن طاهر

وقال الحسن بن هاني على مذهب الشموبية :  
وجاورت قوماً ليس بيني وبينهم أواصر إلا دعوة وبلطون  
إذا مدعى باسمي العريف أحبته إلى دعوة مما على يهون  
لازد عمان بن الملهب نزوة إذا افتخر الأقوام ثم تلين  
وبكريري أن النبوة أنزلت على مسمع في البطن وهو جنين  
وقالت تيم لا ترى أن واحداً كأحنفنا حتى الممات يكون  
فلا مت قيساً بعدها في قتيبة إذا افتخروا إن الحديث شجون

\* \* \*

قال ابن قتيبة في كتاب تفضيل العرب . وأما أهل التسوية فإن منهم قوماً  
أخذوا ظاهر بعض الكتاب والحديث فقصوا به ولم يفتشوا عن معناه فذهبوا  
إلى قوله عز وجل ( ان أكرمكم عند الله أتقاكم ) وقوله ( إنما المؤمنون إخوة  
فأصلحوا بين أخويكم ) وإلى قول النبي صلى الله عليه وسلم في خطبته في حجة  
الوداع أيها الناس ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء ليس  
لسرني على عجبى نخر الا بالتقوى كلكم لآدم وآدم من تراب ، وقوله المؤمنون  
تتكافأدماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم وإنما المعنى في هذا  
ان الناس كلهم من المؤمنين سواء في طريق الأحكام والمنزلة عند الله عز وجل  
والدار الآخرة لو كان الناس كلهم سواء في أمور الدنيا ليس لأحد فضل الا بالمر  
الآخرة لم يكن في الدنيا شريف ولا مشروف ولا فاضل ولا مفضول فما معنى  
قوله صلى الله عليه وسلم إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه وقوله صلى الله عليه وسلم  
أقبلوا ذوى الهيئات عرأتهم وقوله صلى الله عليه وسلم في قيس بن عاصم هذا  
سيد الوبر . وكانت العرب تقول لا يزال الناس بخير ما تباينوا فاذا تساوا هلكوا  
تقول لا يزالون بخير ما كان فيهم أشرف واخيار فاذا حملوا كلهم جملة واحدة  
هلكوا أو اذا ذمت العرب قوماً قالوا : سواسية كأسنان الحمار . وكيف يستوى  
الناس في فضائلهم والرجل الواحد لا تستوى في نفسه أعضاؤه ولا تتكافأ مفاصله  
ولكن لبعضها الفضل على بعض وللرأس الفضل على جميع البدن بالعقل والحواس

الحمس ، وقالوا القلب أمير الجسد ومن الأعضاء خادم ومنها مخدومة  
قال ومن أعظم ما ادعت الشعوبية فخرهم على العرب آدم عليه السلام ويقول  
النبي عليه الصلاة والسلام الا تفضلوني عليه فانما أنا حسنة من حسناته ثم فخرهم  
بالانبياء أجمعين وانهم من العجم غير أربعة هود وصالح واسماعيل ومحمد عليهم  
الصلاة والسلام واحتجوا بقول الله عز وجل ( ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل  
ابراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم ) ثم فخروا  
باسحق بن ابراهيم وانه لسارة وأن اسماعيل لأمة تسمى هاجر قال شاعرهم

في بلدة لم يصل عكن بها طنباً      ولا خباء ولا عك وحمدان  
ولا لجرم ولا نهيد بها وطن      لكنها بنى الاحرار أوطان  
أرض تبنى بها كسرى مساكنه      فما بها من بنى اللخناء انسان

فبنوا الاحرار عندهم العجم وبنوا اللخناء عندهم العرب لانهم من ولد  
هاجر وهي أمة وقد غلطوا في هذا التأويل وليس كل أمة يقال لها اللخناء من  
الاماء الممتهنة في رعي الابل وسقيها وجمع الحطب وانما أخذ من اللخن وهو نون  
الريح يقال لخن الشقاء اذا تغير ريحه فاما مثل هاجر التي طهرها الله كل دنس  
وارتاضها للخليل فراشاً وللطيبين اسماعيل ومحمد أمماً وجعلها سلالة فهل يجوز  
لملحد فضلاً عن مسلم أن يسميها اللخناء

قال بعض من يرى رأى الشعوبية فيما يرد به على بن قتيبة في تباين الناس  
وتفاضلهم والسيد منهم والمسود اننا نحن لا ننكر تباين الناس ولا تفاضلهم ولا  
السيد منهم والمسود والشريف والمشروف ولكننا نزعم أن تفاضل الناس فيما بينهم  
ليس بآبائهم ولا باحسابهم ولكنه بافعالهم وأخلاقهم وشرف أنفسهم وبعد  
همسهم ألا ترى انه من كان دنيء الهمة ساقط المروءة لم يشرف وان كان من بنى  
هاشم في ذؤابتها ومن أمية في أورمتها ومن قيس في أشرف بطن منها انما الكرم  
من كرمت أفعاله والشريف من شرفت همته وهو معنى حديث النبي صلى الله  
عليه وسلم إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه وقوله في قيس بن عاصم هذا سيد أهل  
الوبر انما قال فيه لسؤدده في قومه بالذنب عن حريمهم وبذله رفته لهم الا ترى ان  
عامر بن الطفيل كان في أشرف بطن في قيس يقول .

وإني وإن كنت بن سيد عامر وفارسها المشهور في كل مركب  
فاسودتني عامر عن وراثة أبي الله أن أسمو بأم ولا أب  
ولكنني أحى حماها وأتقى أذاها وأرمى من رماها بمنكب  
وقال آخر .

إنا وإن كرمت أوائلنا لسنا على الاحساب نتسكى  
نبي كما كانت أوائلنا تبنى ونفعل مثل ما فعلوا

وقال قس بن ساعدة ، لاقضين بين العرب بقضية لم يقض بها أحد قبلي ولا  
يردها أحد بعدى أيما رجل رمى رجلاً بعلامة دونها كرم فلا لوم عليه ، وأيما  
رجل ادعى كرمًا دونه لثوم فلا كرم له ، ومثله قول عائشة أم المؤمنين كل كرم  
دونه لثوم فاللثوم أولى به وكل لثوم دونه كرم فالكرم أولى به ، تعنى بقولها أن أولى  
الاشياء بالإنسان طبائع نفسه وخصالها فإذا كرمت فلا يصره لثوم أوليته ، وإن  
لثومت فلا ينفعه كرم أوليته وقال الشاعر

نفس عصام سودت عصاما \* وعامته الكرم والاقداما \* وجعلته ملكا هماما  
وقال آخر . مالى عقلى وهمتى حسبى ما أنا مولى ولا أنا عربى  
إن انتمى منتم الى أحد فأننى منتم الى أدبى

روى بن العيينة الهاشمى عن الفخذى عن شبيب بن شبة قال ، كنا وقوفنا  
بالمربد موضع بالبصرة وكان المربد مألّف الاشراف اذ أقبل بن المقفع فبششنا به  
وبدأناه بالسلام فرد علينا السلام ثم قال . لومتم الى دار نيروز ، وظلّها الظليل ،  
وسورها المديد ، ونسيمها العجيب ، فعودتم أبدانكم تمهيد الارض ، وأرحتم  
دوابكم من جهد الثقل ، فإن الذى تطلبونه لم تفلتوه ، ومهما قضى الله لكم من  
شئ تنالوه ، فقباننا وملنا ولما استقر بنا المكان قال لنا : أى الامم أعقل فنظّر  
بعضنا الى بعض فقلنا : لعله أراد أصله من فارس فقلنا . فارس فقلنا . ليسوا  
بذلك انهم ملكوا كثيرا من الارض ، ووجدوا عظيمًا من الملك ، وغلبوا على  
كثير من الحق ، ولبث فيهم عقد الامر ، فما استنبطوا شيئًا بعقولهم ، ولا  
ابتدعوا باقى حكم فى نفوسهم قلنا فالروم قال . أصحاب صنعة قلنا . فالصين قال  
أصحاب ظرفة قلنا الهند قال . أصحاب فلسفة قلنا السودان قال . شر خلق الله قلنا

الطزر قال . بقى ساعة قلنا . فقل قال العرب قال . فضحكنا قال . أما انى ما أردت موافقتكم ولكن اذ فاتنى حظى من النسبة فلا يفوتنى حظى من معرفة ان العرب حكمت على غير مثال مثل لها ولا آثار أثرت ، أصحاب ابل وغنم ، وسكان شعر وأدم . يجوز أحدهم بقوته . ويتفضل بمجهوده ، ويشارك في ميسوره ومعسوره . ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة . ويفعله فيصير حجة ويحسن ما شاء فيحسن . وبقبح ما شاء فيقبح . أدبتهم أنفسهم . ورفعتمهم ثممهم وأعلمتهم قلوبهم والسننهم . فلم يزل حياء الله فيهم . وحياءؤهم في أنفسهم . حتى رفع لهم الفخر . وبلغ بهم أشرف الذكر . وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر وافتتح دينه وخلافته بهم الى الحشر . على الخير فيهم ولهم ، فقال سبحانه ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . فمن وضع حقهم خسر . ومن أنكر فضلهم خصم . ودفن الحق باللسان . اكتب للجنان اه

\*  
\*\*

أما عناية الاسلام باسقاط الجنسية فتراه مائلا من حسن معاملتهم للموالى فقد ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم جيش مؤتة زيدا مولاة وقال إن قتل فأميركم جعفر وأمر رسول الله أسامة بن زيد فبلغه أن قوما قد طعنوا فى امارته ، وكان أمره على جيش فيه جلة المهاجرين والانصار ، فقال عليه السلام : ان طعنتم فى امارته لقتل طعنتم فى امارة أبيه قبله ، ولقد كان لها أهلا ، وان أسامة لها لأهل وقالت عائشة : لو كان زيد حيا ما استخلف رسول الله غيره وقال عبد الله بن عمر لأبيه لم فضلت أسامة على وأنا وهو سيان فقال : كان أبوه أحب الى رسول الله من أبيك وكان أحب الى رسول الله منك أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أزواجه لتميط عن أسامة أذى من مخاط أو لعاب فكأنها تكرهته ، فتولى منه ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ، وقال له يوماً ولم يكن أسامة من أجهل الناس ، لو كنت جارية لنحلتناك وحلميناك حتى يرغب الرجال فيك ، وفى بعض الحديث أنه قال : أسامة من أحب الناس الى . وكان صلى الله عليه وسلم أدى الى بنى قريظة مكاتبه سلمان فكان سلمان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم

فقال علي بن أبي طالب عليه السلام : سلمان منا أهل البيت . ويروي أن المهدي نظر اليه ويد عمارة بن حمزة في يده فقال له رجل من هذا يا أمير المؤمنين فقال أخى وابن عمى عمارة بن حمزة فلما ولي الرجل ذكر ذلك المهدي كالمنازح لعمارة فقال له عمارة انتظرت أنه يقول ومولاي فانتفض والله يدك من يدي فتبسم أمير المؤمنين المهدي ولم يكن إلا كرام للموالى فى جنابة العرب

زعم الليثى انه كانت بين جعفر بن سليمان وبين مسمع بن كردين منازعة وبين يدي مسمع مولى له بهاء ورواء ولسن . فوجه جعفر الى مسمع مولى له لينازعه ومجلس مسمع حافل فقال ، ان أنصفنى والله جعفر أنصفته ، وان حضر حضرت معه ، وان عند عن الحق عندت عنه ، وان وجه الى مولى مثل هذا وأوماً الى مولى جعفر فقال : مولى مثل هذا عاضاً لما يكره وجهت اليه ، وأوماً الى مولاه فعجب أهل المجلس من وضعه مولاه ذلك الموضع الذى تباهى بمثله العرب ، وقد قيل ، الرجل لأبيه والمولى من مواليه ، وفي بعض الأحاديث . ان المعتقد من فضل طينة المعتقد . ويروي أن سلمان أخذ من بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم تمر من تمر الصدقة فوضعها فى فيه فانزعها منه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال . يا أبا عبد الله انما يحل لك من هذا ما يحل لنا . ويروي أن رجلاً من موالى بنى مازن يقال له عبد الله بن سليمان وكان من جلة الرجال نازع عمرو بن هذاب المازنى وهو فى ذلك الوقت سيد بنى تميم قاطبة فظهر عليه المولى حتى أذن له فى هدم داره . فأدخل القمعة دار عمرو فلما قلع من سطحه سافماً كف عنه ثم قال : يا عمرو قد أريتك القدرة وسأريك العقو . وقد كان فى قريش من فيه جفوة ونبوة

كان نافع بن جبير أحد بنى نوفل بن عبد مناف اذا مر عليه بالجنازة سأل عنها فان قيل قرشى قال واقوماه وان قيل عربى قال واماداتاه . وان قيل مولى أو عجمى قال اللهم هم عبادك تأخذ منهم من شئت وتدع من شئت . ويروي أن ناسكاً من بنى الهجيم بن عمر بن تميم كان يقول فى قصصه . اللهم اغفر للعرب

خاصة وللموالى عامة . فاما المعجم فهم عميدك والأمر اليك  
ومثل ذلك ما كان بعضهم يقولونه : لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة حمار أو كلب  
أو مولى . وكانوا لا يكتنونهم بالكنى . ولا يدعونهم الا بالأسماء والألقاب .  
ولا يمشون في الصف معهم . ولا يتقدمونهم في الموكب وان حضروا طعاماً قاموا  
على رؤوسهم . وان أطعموا المولى لسنه وفضله وعلمه أجاسوه في طريق  
الخباز لئلا يخفى على الناظر انه ليس من العرب . ولا يدعونهم يصلون على الجنائز  
اذا حضر أحد من العرب . وإن كان الذي يحضر عزيزاً وكان الخطاب لا يخطب  
المرأة منهم الى أبيها ولا الى أخيها وانما يخطبها الى موالها فان رضى زوج والارد  
فان زوج الأب والأخ بغير رأى مواليه فسوخ النكاح وان كان قد دخل بها  
كان سفاحاً غير نكاح

وذكر عمرو بن بحر الجاحظ في كتاب الموالى والعرب أن الحجاج لما خرج  
عليه ابن الأشعث وعبد الله بن الجارود ولقي مالتى من قراء أهل العراق وكان  
أكثر من قتاله وخلمه وخرج عليه الفقهاء والمقاتلة والموالى من أهل البصرة فلما  
علم انهم الجمهور الاكبر والسواد الاعظم أحب أن يسقط ديوانهم ويفرق جماعتهم  
حتى لا يتأنفوا ولا يتعاقدوا فاقبل على الموالى وقال أنتم علوج وعجم وقراؤكم  
أولى بكم ففرقهم وفض جمعهم كيف أحب وصيرهم كيف شاء ونقش على يد كل  
رجل منهم اسم البلدة التى وجهه اليها وكان الذى تولى ذلك منهم رجل من بنى  
سعد بن عجل بن لجين يقال له حراش وقال شاعرهم

وأنت من نقش العجلى راحته وفر شيخك حتى عاد بالحكم

يريد الحكم بن أيوب التميمى عامل الحجاج على البصرة  
ولقد أورد ابن بسام فى الذخيرة فى ترجمة الأديب أبى جعفر أحمد الدودين  
البلنسى رسالة بن غرسية يخاطب بها أبى جعفر بن الجزار فى فضل الشعوبية وذم  
العرب ابتدأها بقوله

يا ابن الأعراب ما علينا ناس لم نحك الا ما حكاه الناس

وقال :

ولم أشتم لكم حساباً ولكن حدود بحيث يستمع الحداء  
وقال فيها في وصف المعجم

هم ملكوا شرق البلاد وغربها وهم منحوركم بعد ذلك سؤوداً  
حلم وعلم ، ذوو الآراء الفلسفية الارضية والعلوم المنطقية الرياضية ، حملة  
الاسترلوميقياء والجومطريقتا ، والعاملة بالارتماطيقا والانولوطيقا والقومة بالموسيقى  
والطوبيقتا ، والنهضة بعلوم الشرائع والطبائع والنفرة في علوم الاديان والابدان  
ماشتت من تحقيق وترقيق حبسوا أنفسهم على العلوم الدينية والبدنية لاعلى  
وصف الناقة العدنيه ، فعلهم ليس بالسفاه كفعل نائلة وإساف ، أصغر بشاً نكم  
اذ بزق خمر باع الكعبة أبو غسانكم وإذبوا رغالكم قاد فيل الحبشة الى حرم  
الله لاستئصالكم

والرسالة كلها على هذا النسق استفرقت مع الردود عليها سبع عشرة ورقة من  
الذخيرة وقد رد عليها كثيرون من أدباء الاندلس في عصر كاتبها ومن جملتهم  
المخاطب بها أبو جعفر وردودهم كلها الى السفاهة والبذاءة أقرب وكتابة ابن  
غرسية أمتن وحججه أوضح .

وقال الجاحظ في رسالته الى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد في النابتة  
وقد انتظموا ( الى ولاية الامر في عهده ) معاني العناد اجمع . وبلغوا غاية البدع  
ثم قرنوا بذلك المصيبة التي هلك بها عالم بعد عالم ، والحمية التي لا تبقى ديناً إلا  
أفسدته ، ولادنيا الا أهلكته ، وهو ما صارت اليه المعجم من مذهب الشعوبية  
وما قد صار اليه الموالي من الفخر على المعجم والعرب ، وقد نجمت من الموالي  
ناجحة ، ونبئت منهم نابتة ، تزعم أن المولى بولائه قد صار عربياً لقول النبي صلى  
الله عليه وسلم ، مولى القوم منهم ، ولقوله الولاء لحمة كالحمة النسب لا يباع ولا  
يوهب ، . فقد علمنا أن المعجم حين كان فيهم الملك والنبوة كانوا أشرف من العرب  
وأن الله لما حول ذلك الى العرب صارت العرب أشرف منهم ، قالوا فنحن معاشر  
الموالي بتقديمنا في المعجم أشرف من العرب وبالحديث الذي صار لنا في العرب  
أشرف من المعجم وللعرب القديم دون الحديث ولنا خصماتان جميعاً وافتتان فينا

وصاحب الخصلتين أفضل من صاحب الخصلة ، وقد جعل الله المولى بعد أن كان أعجمياً عربياً بولائه كما جعل حليف قريش من العرب قرشياً بخلفه وبعد أن جعل اسماعيل أعجمياً عربياً ولولا قول النبي صلى الله عليه وسلم ان اسماعيل كان عربياً ما كان عندنا الا أعجمياً لان الاعجم لا يصير عربياً كما ان العربي لا يصير أعجمياً فانما علمنا ان اسماعيل صيره الله عربياً بعد أن كان أعجمياً بقول النبي صلى الله عليه وسلم فكذلك حكم قوله مولى القوم منهم وقوله . الولاء لجهة الى أن قال وليس أدعى الى الفساد ولا أجلب للشرك من المفاخرة وليس على ظهرها الا نخور الا قليل ، وأى شيء أغيظ من أن يكون عبدك يزعم أنه أشرف منك ، وهو مقر انه صار شريفاً بمتقك إياه .

## العمل الصحيح <sup>(١)</sup>

قالوا العلم علمان علم الابدان وعلم الأديان ، أو دنيوى ودينى ، فالدنيوى علم ما فيه صلاح المعاش ، وحفظ النظام في عالم الكون والفساد ، والدينى كل ماله حساس بالمعاد ، وتهذيب النفس ، والابتعاد عن المنكرات في هذه الفانية ، للظفر بالباقيات الصالحات في تلك الدار الباقية

كان العلم الدينى لأول أمره موجزاً منديجاً ، لم ينقد قواعد مقررة ، وأصولاً نافعة ، فكان العربي يقصد الرسول عليه السلام يعلمه الدين في ساعة ، ثم يحمله على القرآن ويقول له اذهب راشداً وبشر عشيرتك وأهلك ، فقد عرفت من الدين جوهره وسره ، وما ينبغى له ، فمن ثم دام الاسلام الى السذاجة حتى قامت قائمة العصبية من أجل التنازع على الملك ، وتجادب حبل السلطة ، فزج الدين بالسياسة ، ودخل في الاسلام من لا يهمه منه غير المغنم ، وراح بعضهم يدسون مالم يقل فيما قيل ، وكثر المنافقون ممن سمعوا بالدين في سرهم ، وهم من اتباعه في جهرم ، وأنشأوا يلبسون ثياب الأصدقاء وهم له أعداء ما كرون

دسوا عوامل إفسادهم وفي القوم يومئذ صنفوة من الأخيار ، توفروا على محاربة البدع والموضوعات بكل لسان وبنان ، بكل سيف وسنان ، وكانوا على اخلاصهم وتأثيرهم كلما استأصلوا شأفة فاسد نبض من الأفسد نابض ، ورجال

السياسة وأكثرتهم لا يرجع في الغالب الى رأى ومذهب ، يدهنون من وراء ذلك حملة الدين ، ويبذلون لهم ما يستغفونهم به ، لينطقوا بألسنتهم ، ولا يفسدوا عليهم امرهم ، اذا رفعوا أصواتهم ونعوا عليهم تبديليهم لما أنزل ، وإلصاقهم به ما ليس منه . ولما رأى العقلاء عاث الفساد يدب ديبه في علوم المعاد ، خافوا أن يتدرج من العبث بالاعراض الى العبث بالجواهر ، فلم يروا بدأ من التدوين والتقييد ، والدلالة على مواضع الضعف والسخف ليبدو السليم لا شائبة فيه ، وأنت خبير بما يقتضى ذلك من التطويل دع ما يتخلله بالطبع لأن في القائم به العالم العامل وفيهم صاحب البدعة والمقالة

مضى على هذه الحال ربح من الزمن ، وعلوم الدين لم تخرج بشيء من علوم الدنيا ، الى أن دخلت علوم الحضارة في الملة وسموها علوم الأوائل ورأت من بعض خلنائنا من أخذ بيدها وهياً لها أسباب انتشارها ، فعندها كثرت المذاهب والآراء ، ونشأ المراك الأولى بين العلوم الدينية والعلوم الدنيوية أى بين الدين القائم بالتسليم ، وبين الفلسفة المبنية على البرهان

وظلت حال العلم الدينى تابعة لمجرى السياسة ، ان جاء عاقل من الأمرء والملوك بكل أمره لجهاذة من المحققين ينظرون فيه وهم مؤتمنون مأمونون ، وإذا ولى رقاب الناس جاهل ينزل نفسه فى كل المنازل ، فيتولى من الخلق أمور دنياهم ودينهم ، ويقرب اليه كل من يتابعه على أهوائه ، ولا ينكر عليه مغالاته ، والعقلاء بمعزل لا ينطقون إلا كارهين ، وربما تدرعوا الخمول وآثروا الانقطاع على الدخول فى المجتمع لا محاضره النصيح ، وتخليصه من المفسد الطارئة عليه

نعم ان التاريخ لم يخل من وجود عقلاء فى كل دور من أدواره ولكن قوتهم ضئيلة لا تنفع وصوتهم خريد لا يسمع ، اذا نسبتهم لأولئك المنافقين ، فى خدمة الآمرين والناهين ، وقد قل عددهم كثيراً فى هذه الديار خصوصاً بعد الدولتين النورية والصلاحيية ، وصار العلم أشبه بتقاليد ورسوم منه بعلم وعمل ، ومناطق ومفاهيم ، وما فتئت العادات يتخيلها بعضهم من الدين ، ويدسونها فيه ، وللجهل الكلمة النافذة فى الهيئة الاجتماعية ، الى أن كان القرن التاسع والعاشروما يليهما من قرون الهجرة ، وهى من العصور المظلمة من تاريخ الاسلام حقيقة ، فعندئذ قل

المميز والمفكر ، وبطلت علوم الحكمة جملة واحدة ، وصار من يتعاطاها في نفسه وبين خاصته كمن يأتي أمراً إداً ، ويخون دينه وأمته ، وبطل النظر في الأصول وتحتم على كل عقل أن لا ينظر في غير الفروع ، مما أملتته خواطر المتأخرين . فأصبح بذلك يمد العالم كل العالم من يحقق من هذه الفروع أكثر . اعتبر ذلك بما تتلوه في تراجم أعيان العلماء في هذه القرون ، فانك لا تراها تتعدى الأقوال والآراء وأهل كل جيل يقدسون قول من سلفهم ولو يبضع سنين ، نعم انك لو انصفت لا تكاد ترى لهم تأليفاً تقرأ فيه نور العقل والخلاص من التقليد البحت ولقد أتت أيام في معظم الاصقاع الاسلامية حرم النظر فيها حتى في الكتاب والسنة ، وعد الناظر فيهما محالاً للخروج عن سنن الجماعة ، فاذا خالف فرد ما افوه أهانوه ومن قاوم بفكره سجنوه أو نفوه وشردوه ، واذا خافوا بأسه قتلوه وجعلوه عبرة ومثلاً للآخرين

تأصلت الأوهام فعدت من أقدم القربات ، وسار الناس مع تيار الجهل وتقديس أقوال أدياء العلم ، والتقوى ، وصدرت الأحكام ، بموامل الأوهام وغدت هذه البلاد كبرج بابل في التبلبل والتشويش اتخذت كل منهما لها أئمة وأولياء ، وانشأت تكبر أمرهم وتدعى لهم مقاما ادعوه لا أنفسهم ، وراح الفقيه يكفر الصوفي ، والصوفي ينقم على تقديسهم . والطعن فيمن عداهم بمن لم يصوروا لهم بالصورة المناسبة لما وقر في نفوسهم وركز في طبائعهم ، وعشش في مخيلاتهم : وهكذا امتزجت علوم الدين بالمشاغبات والمماحكات . لو بعث الشارع وأصحابه لرؤا الاختلاف بين ماورد وما صار اليه مستحكماً بعيد الأطراف يصعب الجمع بينهما كما يصعب الجمع بين النقيضين . وماذا أصف من تسرب الجهل الى العبت بالعقول في تلك القرون ، وانك ترى أثراً من آثاره لهذا العهد عن بعض من فطموا أنفسهم من النظر في المعقولات منا ، فترى كلمات التضليل والتكفير والتبديع والتفسيق أسرع الى أفواهمهم من الماء الى الحدور وتشهد الغر الغمر يتحكم بالحنة فيعطيها لمن يشاء ، ويخرج منها من يشاء ، فوارحمتاه على أناس أضاعوا فضل عقولهم في الجدل ، ولكم كان الخير يأتي من جهتها لو اشتغلت بالمفيد ،

ونبذت الاهواء ظهرياً ، ولكن اذا اراد الله بقوم سوء آرزقهم الجدل ومنعهم العمل  
قلت فيما سلف ان علوم الدنيا دخلت في الملة لما رأت من يعصدها من رجال  
السياسة وكان ذلك في القرن الاول بيد انهم لم تنتشر الانتشار المطلوب الا في  
القرن الثاني والثالث. شاعت قرنين ثم أخذت تضعف الى أواخر القرن السابع أيام  
قل المشتغلون ولو على طريقة نظرية بعلوم العقل التي لا قائمة لأمة بدونها  
مهما أخلصت في دينها . واذا استفتيت تواريخهم تجد المتلبسين بشعار العلماء  
لا يعدون في جملتهم ذلك الرياضي والجغرافي وربما فضلوا عليها المعار  
والثرائر . من أجل هذا نرى المدارس على تفنن القوم في انشائها بعد القرون  
الوسطى منازل خاصة بالفقيه والمحدث والقارئ والرباطات للمجذمين المعدمين  
والكسالى ولم نجد مدرسة اللهم الا بعض مدارس الطب والهندسة موقوفة على  
الرياضيين والطبيعيين والفلكيين والمؤرخين كأن علومهم هذه أباطيل لا تصح  
الاعانة عليها . وحسب الرياضي أن يفضى الفقيه عنه ما دامت الحالة بين هبوط  
وصعود والاجود بها أن تدعى سقوطاً الى منتصف القرن الماضي أيام أخذ السلطان  
عبد المجيد في البلاد العثمانية ومحمد علي في هذا القطر يسهلان السبل لهذه العلوم  
ويعدان أهلها في مصاف العلماء وأنشئت المدارس لتعليمها وغدا المشتغلون  
بالعلوم الدنيوية حزباً والمتوفرون على تعليم العلوم الدينية حزباً آخر . على انه لم  
تجد عودة تلك العلوم الدنيوية التي سماها بعضهم عصرية وبعضهم دعاها حديثة  
لما نتج عنها من حركة كانت أشبه برد فعل ما ظلت الأمة معها صائماً أخذ منه  
الجوع فلم يجد ما يطعمه حتى ساقته الاقدار الى مائدة موسر وقد حوت ما طاب  
وحلا من صنوف الاطعمة والحلواء فأخذ يلتمهم ما وصلت يده اليه بدون تردد  
يزدرده بلا مضغ ويمزج بارده بحاره وحلوه بحامضه ويؤخر ما يقتضى تقديمه  
ويقدم ما يحسن تأخيريه . ونشأت ناشئة لم تدر من العلم الحقيقي غير قشوره  
شربت مصة من مورده ظنتها غاية ما يرتوى به المرتوون وراحت تعد المروق  
غاية النور والازراء على النبوات من آيات الحكماء والطعن في الشرائع من عمل  
الجهابذة النجارير وانكار القديم مهما كان نفعه والتعلق بالحديث مهما ضؤل  
قائله من دواعي النهوض والاستنارة . وعلى الجملة ينبذون كل ما ليس لهم به علم

من تراث أجدادهم حاسبين الصحيح منه والسقيم في مقام واحد مما حكين ولو بان لهم الراجح من المرجوح .

يقول فقيه اليوم إنه لا نجاح للأمة الا بنبذ ذلك القديم مباشرة والاخذ بهذا الحديث على علته . وفاتهم أن ما يسوغ في الغرب لا يتم في الشرق . وأن لكل أمة طبيعة ومنازع لا بد من مراعاتها . وأن اقامة مدينة جديدة في بادية أسهل من اصلاح مدينة قديمة لاغنية عن البناء فيها . وأن من العقل أن لا ينبذ ذلك القديم بل يرجع فيه الى الأصل القليل . ويؤخذ النافع منه . ويترك ما عدا ذلك من تحريف المخرفين وضلالات المبتدعين والاخذ من هذا الحديث بالعلم الصحيح الذي تمس اليه الحاجة . واطلاق الحكم للعقل يعمل عمله في طريقه . العلم الصحيح هو الذي يبعث صاحبه على عمل النافع ولو كان في ذلك ضياع مصاحته الشخصية فلا يبالي حامله بفضب الرؤساء والزعماء ولا يستغويه رضى الغوغاء والدهماء . يتجشم المخاطر في نشر خاطر . ويركب كل صعب وذلول لانارة مظاهرات العقول

العلم الصحيح هو الذي خلص من ضغط الأهواء السياسية والمذهبية وسلم من التأثيرات والغايات فلقنه صاحبه بريثاً من شوائب النزعات والنزعات . وأثر في نفسه تأثيراً مجرداً . فاذا نطق بمداه فلا ينطق الا بما يوحى اليه هاتف الفهم السليم . والعقل الحكيم . فلا يتمصب للآباء والجدود . ومألوفات المحيط وعادات الامل والاقليم . ويتحزب لشيخه واستاذة ولو تجلى له أنها تنكبا عن طريق الحق .

العلم الصحيح هو الذي يحترم صاحبه به آراء غيره . ولو كانت مباينة لافكاره كل المباينة . ولا يعدها سخافات وترهان . فينكر كل ما لا يعلم ويستكثر ما وعى . ولا يعد حطة عليه أن يتسقط الحكمة أني وجدها وفي أي المظاهر ظهرت فيأخذ نفسه بالتعلم ولو شاب وجاوز الثمانين .

العلم الصحيح هو الذي تكون نتائجه أكثر من مقدماته وفروعه خيراً من أصوله يأخذ له حامله من نفسه . فلا يتكبر عن افادة . ولا يستنكف من استفادة . ويسعى الى بث ما يعرف في كل أفق ويعد البشر إخوة فلا يقصر في

تعليمهم مما علم . يقينه ان صلاح الافراد سالم للوصول الى اصلاح الجماعة .  
والمصلحة العامة هي ابدأ موضوع نظر من رزق حظا من هذا العلم  
العلم الصحيح هو الذي يربي المملكات ويهذب النفوس فلا يستخدم صاحبه  
علمه أداة للغلبة بالباطل والأدلال على الاقران والذهاب بفضل الشهرة والمحمدة  
الزائلة والتبجح والتنطس . فامنح اللهم بفضلك هذه الديار شيئاً من هذا العلم  
وكثر فيها سواد أهله بمنك وحسن تسديك

## علاقة العرب بالغرب<sup>(١)</sup>

فأميرنا هو الذي وضع المسألة العربية على بساط البحث ووجه اليها انظار  
العالم الغربي وكانت مسألتنا من قبل مندجحة في المسألة الشرقية فيز بصحة عقله  
بين المسألتين الشرقية والعربية وأبان للغربيين أن العرب غير الترك واننا أمة قوية  
الشكيمة يبلغ عدداً أكثر من نصف سكان تلك الامبراطورية العثمانية المنحلة  
وأبعد منهم كعباً في المدنية وليس لهم من المزايا علينا الا ان الطالع ساعد ملوكهم  
الاقدمين وقاموا بغفلة الدهر عنهم فانشأوا ذلك الملك الضخم بقوة سلاحهم  
الذي لم يبرحوا شاهره الى ساعة انهم من بين أظهرنا أي أنهم اكتفوا مدة  
أربعة قرون باستصفاة البلاد وما استطاعوا أن يستصفوا القلوب وشتان بين من  
يخضع الاجسام الجامدة ومن يخضع الاجسام الحية

ربما كان بين أهل الغرب اليوم عدد قليل من الناس لا يثبتون مزية للمدنية  
العربية القديمة وهؤلاء ممن أخذوا معلوماتهم عن كتب املاها المتعصبون منهم  
وبعضهم من سكان الاديان الذين ضاقت عن تحملهم مثل أرض فرنسا وسويسرا  
الحررة ولكن هناك مئات من علماء المشرقيات أخذوا بمعلوم الشرق ولغاته ولا

(١) من محاضرة في النادي العربي بدمشق مساء ١٤ شعبان ١٣٣٧ (١٩١٩) نشرت في جريدة

سيما بسيدتها اللغة العربية فدرسوا الحضارة العربية والتاريخ العربي في مظانه وبلغته وأزالوا غشاوة الأوهام عن انمواع بما أنشأوه من المجلات ونشروه من الكتب بلغاتهم المختلفة يبينون للناس مجد هذه الامة الغابر وأيامها الفر المحجلة وربما كان منهم المتمصب للعرب وتحميد دولهم السالفة أكثر من تعصبه لمدينة الامم الحديثة وهؤلاء هم الذين يخدمون العلم للعلم لا يتبعون فيه على الغالب هوى النفوس في السياسة ولاسلطان للأديان تمليه على ضمائرهم .

ومن قرأ دائرة المعارف الاسلامية التي لا تزال تصدر الى اليوم في مطبعة ليدن من عمل هولاندة بلغات العلم الثلاث الانكليزية والالمانية والفرنسوية وهو أصح كتاب كتب في تاريخ بلاد العرب وجغرافيتها وتراجم رجالها وأصول شعوبها ومن عرف ان أمهات كتبنا في الدين والعلم والتاريخ لا تزال تطبع في مطابع الغرب منذ زهاء أربعمائة سنة أى على أوائل عهد اختراع الطباعة وأن المطبوع منها بالعناية الفائقة تتألف منه خزانة كتب كبرى تحتوى على كل فن ومطلب وأن مطابع من أسفار أسلافنا في اوربا وأميركا على أيدي المستشرقين من أهل تينك القارتين يبلغ أضعاف أضعاف مطابع بلغات الشرق كله — من عرف كل هذا يدرك ولا جرم مبلغ عناية الافرنج باقتنا ومدنيتنا وتاريخنا

أكدوا أيها السادة أن تفسير القرآن الكريم يقرأ درساً على طلاب الجامعات في الغرب كما تقرأ دروس الفلسفة والتاريخ والادب . وما أنس لأنس وقد دعاني في بودابست الاستاذ غولد صهير العلامة المجرى الى داره وهو يقول انى الآن ذاهب الى السكليه لالقاء درسى وأعود اليك بعد مدة فسألته ماذا تقرأ الآن لتلاميذك يا أستاذ فقال تفسير القرآن وأغرب من هذا ما ذكره لى صديقي العلامة أحمد زكى باشا المصرى قال دخلت على الاستاذ درانبورغ فى مدرسة اللغات الشرقية الحية فرأيتة اسرايئلياً يدرس كتاب المسامين لجماعة من المسيحيين أما الحديث والفقه والاصول والتصرف فهو أيضاً مما يعانونه كما يعانون غيره من آدابنا وتاريخنا وعلومنا ورجال الافرنج يدركون حقيقة العرب وعلومهم منذ توطن سلطان الامويين فى الاندلس وأخذ بعض المتنورين منهم يدخلون تلك المملكة العربية ويدرسون العلوم على علمائها ويهودون الى فرنسا وإيطاليا

ينشرونها بين قومهم وكان بعض المشتغلين على علماء العرب من الاسرائيليين وبعضهم من المسيحيين الذين تولوا بما تعلموه أعظم منصب ديني في النصرانية . وكان الله سخر العرب ليفتحوا الاندلس ويعمروها حتى ينقلوا لاهل أوروبا العلم والحضارة ولما انهوا مهمتهم عادوا أدراجهم من تلك المملكة البديعة

امتاز المسلمون باحسانهم الى من خالفهم اذا كان مما تحمد سيرته السياسية والوطنية ولذلك حموا الاسرائيليين مواطنيهم في الاندلس ويوم أخرجوا منها فكروا في حماية الاسرائيليين ومصالحهم كما نظروا في حماية أبناء دينهم اشترطوا على الغالب شروطاً تقيهم بأسه وكان الاسرائيليون اذ ذاك في الغرب مضطهدين في كل مكان الا في الاندلس وكم استمتع الاسرائيليون بحريتهم على عهد العرب في الاندلس على عهد العرب في الاندلس على صورة لم يعد لهم مثلها الا في القرن الاخير في أوروبا حتى العرب الاسرائيليين في الغرب كما هم في الشرق واعتمدوا عليهم في مصالح الدولة لان الاسرائيليين كانوا اذ ذاك يعضدون الحكومة التي تحكمهم كما هو اليوم في إيطاليا حيث كان لهم القدر المعلى في قيام الوحدة الإيطالية منذ نحو خمسين سنة وكان لهم من النفوذ الاقتصادي العظيم ما خدموا به الوحدة وخلصوا لها وخدموا سياسة إيطاليا حتى أصبح منهم الولاة ورؤساء النظار وكبار العمال (١) لا ينازعهم منازع وذلك لان الاسرائيليين في إيطاليا إيطاليين أولاً ثم اسرائيليين خلافاً لما عليه سائر الممالك

ولو لم يكن حكم العرب في الاندلس الى الدين والعدل مادام ثمانية قرون وكذلك حكمهم في جزائر صقلية وسردانية ومنورقة وميورقة وقرسقة وغيرها من جزر الطليان وكان اختلاط العرب بالامم اللاتينية ولا سيما بالبرتغاليين والاسبانيين والفرنسيين والطليان ولذلك تجد في لغات هذه الامم مئات من الالفاظ العربية ولم ير الايطاليون أن يغيروا شيئاً من مصطلحات العرب حتى أن الملك رجار الذي عاد فاستولى على صقلية سنة ١٤٥٥ كان يتكلم بالعربية ومثله كثير من ملوك إيطاليا وكان يفضل كثيراً على علماء العرب وهو الذي وضع له الشريف

(١) إيطاليا الحديثة للأمر جيوفاني بورغزة

الادريسي الجغرافي كرة أرضية بالفضة كانت من أعاجيب القرون الوسطى دهشت لها أجيال الأفرنج كماهم (١)

وكانت دراسة العربية شائعة في شبه جزيرة إيطاليا ينظر الى تمامها انه من الحاجات الماسة لكل تجار المدن البحرية وقد وضع أحدهم سنة ١٢٦٥ م باللغة العربية كتاب المعاهدة التجارية بين تونس وجمهورية بيزا وظلت العربية مألوفاً في عدة أماكن من إيطاليا الجنوبية عقيب احتلال العرب صقلية فكانت في بلاط نورمانديا وهو هانستوفين وفريدريك الثاني ودي منهروا لغة العلم العالي والشعر والادب . وكان من سقوط الدولة البيزنطية في القسطنطينية وهجرة علماء من اليونان الى إيطاليا وكثير من نصارى الشرق واختراع الطباعة وقيام الاصلاح الديني ان هبت في أرجاء إيطاليا حركة النهضة العلمية التي تجلت في أجمل مظاهرها في الدروس الشرقية ولاسيما في دروس العربية والاسلام

وشاعت في القرون الوسطى في أوروبا (٢) لغتان فقط من لغات الشرق بين العلماء وهي اللغة العبرانية التي كانت تعتبر لغة الانسانية الاصلية واللغة العربية التي كانت مهمة لكثرة البشر الذين يتكلمون بها واشهرة فلاسفة الاسلام أمثال ابن رشد وابن سينا وابن زهر والفارابي ، لذلك انشئ في باريز منذ أواسط القرن الثالث للميلاد درس عام لتدريس اللغة العربية . وفي سنة ١١ م شرع في باريز واكسفورد وبولون وفانمكة بتدريس العربية مع العبرانية والكلدانية وكان لأسرة ميديسيس الايطالية فضل على الآداب العربية كما لها الفضل على الشعر والموسيقى والتصوير والهندسة

ثم ان الأفرنج زاد اختلاطهم بالعرب في الحروب الصليبية فان هذه وان كلفت أمم أوروبا ملايين من الانفس والاموال الا أن أهلها عادوا منها بعد جهاد نحو قرنين وقد لقنوا أموراً كثيرة من العرب أثرت في حضارتهم واخلاقهم وعلومهم وصناعاتهم لانهم شاهدوا أمة أرقى منهم إذ ذاك فأخذوا عنها ما اتسعت له أوقاتهم وكانوا على اختلاط تام مع الامم التي يجارونها

(١) مجلة المقتبس م ٨ ص ٧٦

(٢) المقتبس م ٨ ص ٤٠١

وبينا كان السيف والنشاب والحجافيق تعمل عملها بين الفريقين كان تجار  
الافرنج يَدْخُلون بلاد العرب ويتجرون على الرّحْب والسعة لا يَنازِعهم مَنازِع  
فأعجِب بهذه الاخلاق مؤرّخو الحروب الصليبية منهم واقر بمنافعها لهم أهل  
الاجيال الخالقة وفي مقدمتهم ميشو في تاريخ الحروب الصليبية وقد ذكر على  
تعصبه أشياء كثيرة مما أخذه الافرنج عن العرب دع مئات من كتاب الغرب  
وباحثيهم ذكروا في كتبهم ومقالاتهم كثيراً مما استفادته أجيال الفرنجة وغيرهم  
من امتزاج الصليبيين بالعرب وقد أدهشهم ما شهدوه من عدل اصلاح الدين يوسف  
ابن أيوب رحمه الله حتى ادعى شاعره عبد المنعم الجلياني أنهم رسموه في هياكلهم فقال .  
وخطوا بارجاه الهياكل صورة لك اعتقدوها كاعتقاد الاقائم  
يديّن لها قس ويرقى بوصفها ويكتبه يشفى به في التأمم

\*  
\*\*

وان ما نقرؤه في تاريخ شواطئ البحر الأبيض حيث ينزل العرب من مراکش  
بالجزائر فتونس فطرابلس فبرقة فمصر فسورية من وقائع حدثت في أزمان مختلفة  
بين العرب وبين البنادقة والجنوزيين والبيزنتيين والاسبانيين والبرتغاليين لا تطعن  
في حسن الصلات بين العرب وجيرانهم على الشاطئ المحاذي لهم من هذا البحر  
لأن هذه الغزوات البحرية كانت بصنع قراصين ومنتشدين وغاغة ظالمين لا دخل  
فيها للأمم ولخاصتها على الأقل ولا سلطة فيها للأديان لأن الأديان كلها تأمر  
بالمعرف وتنهى عن المنكر ومن أعظم المنكرات فيها قتل النفس التي حرم الله .  
ولذلك تجد المعاهدات تعقد الحين بعد الآخر بين صاحب تونس أو مصر أو الشام  
أو الغرب الأقصى وبين الملوك النازلين من الافرنج في جنوبي أوروبا وهذه الغزوات  
البحرية أشبه بالغزوات البرية التي طالما حدثت لها أمثال بين الامة الواحدة من  
الافرنج أو الامة الواحدة من العرب

ولطالما غزا سكان جنوبي فرنسا سكان شمالها ودينهم واحد ولسانهم واحد  
وعاداتهم وتقاليدهم متقاربة ولم يتيسر نزع هذا الخلق وهو من اخلاق البداوة  
في الغالب الا بما قام في فرنسا من الاعمال المالية التي ربطت ابن الشمال بابن الجنوب

برباط معنوى مادى فارتفعت الخصومات من بينهما لأن المصلحة المادية منفضلة على كل شئ فقد قال الجاحظ « وليس يكون أن تصفو الدنيا وتنقى من الفساد والمكروه حتى يموت جميع الخلاف وتستوى لاهلها وتتمهد لسكانها على ما يشتهون ويهونون لان ذلك من صفة دار الجزاء وليس كذلك صفة دار العمل . »

قال الكونت هنرى دى كاستر فى كتابه الاسلام خواطر وسوانح . ولقد زادت محاسنة المسامين للمسيحيين فى بلاد الاندلس حتى صاروا فى حالة اهنأ من التى كانوا عليها أيام خضوعهم لحكم قدماء الجرمانيين الذين يقال لهم الفيزيغوت . ويقول دوزى إن هذا الفتح لم يكن مضرأ بالاندلس وما حصل من الاضطراب والهرج بعده لم يلبث أن زال باستقرار الحكومة المطلقة الاسلامية فى تلك البلاد . وقد أبقى المسلمون سكانها على دينهم وشرعهم وقضائهم وقلدوهم بعض الوظائف حتى كان منهم موظفون فى خدمة الخلفاء وكثير منهم تولى قيادة الجيوش مثل ( سيد ) وتولد عن هذه السيادة الرحيمة أن انحاز عقلاء الأمة الاندلسية الى المسامين وحصل بينهم زواج كثير وكم من اندلسى بقى على دينه ولكنه اعجبته طلاوة التمدن العربى فتعلم اللغة وآدابها وأصبح القسس يلومونهم على ترك الحان الكنيسة والتعلق بأشعار الفاتحين وكانت حرية الأديان بالغة منتهاها لذلك لما اضطهدت أوربا الموسويين لجأوا الى خلفاء الاندلس فى قرطبة ولما دخل الملك كارلوس الى سرقسطة أمر جنوده بهدم جميع معابد اليهود ومساجد المسامين قال ونحن نعلم أن المسيحيين أيام الحروب الصليبية ما دخلوا بلاداً الا واعملوا السيف فى يهودها ومسلميها وذلك يؤيد أن اليهود انما وجدوا مجيراً وماجأ فى الاسلام فان كانت لهم باقية حتى الآن فالفضل فيها راجع لمحاسنة المسامين ولين جانبهم . اه وقال سيديليو فى كتابه حضارة العرب مما يدل على شأن الأمة العربية أنها فتحت بلاداً أجنبية ولم يتغلب عليها غريب مع اتصافها منذ أربعة آلاف سنة بما انفردت به من جميل الاخلاق والعادات فكانت منذ نشأة أقدم الدول مدبرة لأموورها متأهبة للاغارة على مجاوريها أخذت مملكتى مصر وبابل قبل الميلاد بتسعة عشر قرناً ثم أخذ منها ما ملكته من البلاد الاجنبية وانحصرت سطوتها فى بلادها العربية فأخذت تقاتل الفراعنة وملوك العراق ونجت من تسلط قورش

ملك الفرس واسكندر المقدوني وبقيت على استقلالها زمن أخذ الرومان الدنيا القديمة ثم أتى النبي فربط علائق المودة بين قبائل جزيرة العرب ووجه أفكارهم الى مقصد واحد فعلا شأنها حتى امتدت سلطتها من نهر التاج في اسبانيا والبرتغال الى نهر القانج في الهند وانتشر نور المعارف والتمدن في المشرق والمغرب وأهل أوربا إذ ذاك في ظلمة جهل القرون المتوسطة وكانهم نسوا نسياناً كلياً ما وصل اليهم من أحاديث اليونان والرومان واجتهد العباسية ببغداد والاموية بقرطبة والفاطمية في القاهرة بترقية الفنون ثم تمزقت ممالكهم وفتقدوا شوكتهم السياسية واقتصروا على السلطة الدينية التي استمرت لهم في جميع ارجاء ممالكهم وكان لديهم من المعلومات والصنائع والاكتشافات ما استفادوا منه نصارى اسبانيا حين طردوهم منها كما أن الأتراك والمغول بعد تغلبهم على ممالك آسيا استفادوا معارف من تغلبوا عليهم . اهـ

وبعد فان أمة هذا ماضيها وهذا حاضرها كيف يجهل بعضهم أو يتجاهلون أمرها وهي التي كانت الصلة والعائد بين المدنية القديمة والمدنية الحديثة ولولا العرب لتأخرت نشأة الحضارة الغربية قرونًا كما أكد بعض المنصفين من علماء الغرب . فاذا كان ماضيها ما رأيت وفي حالتنا الحاضرة بعض النواقص جاء لنا من الحكم الاستبدادي الذي نخر العظم قرونًا طويلة فأننا لا يصح الا أن يقال عنا اليوم كما وصفنا رئيس الكلية الأميركية الدكتور هوردبلس في مؤتمر الصلح أمة كسائر الأمم فينا من العيوب ما في غيرنا أما استعدادنا للرقى اذا رفعت عن عيوننا العصائب فقد أثبتت رجالنا الذين تعلموا وتهذبوا فكانوا في مصر والسودان وفي أميركا وأوربا على مستوى الغربي الراقى في علمهم وآدابهم ومتاجرهم وصناعاتهم وأثبتت دعاة الثورة العربية وما ظهر من تفانيهم في وطنيتهم لارجاع مجد أممتهم بعد ذبوله

واليك مع هذا ما ذكره غستاف لوبون صاحب كتاب مدينة العرب في كتابه علم النفس السياسية<sup>(١)</sup> في باب الاسباب النفسية: الق بالمدينة الاوربية عن تحويل الشعوب المنحطة عن حالتهم قال : لا تعمل التربية الا أن تلخص المدنية

والاوضاع والمعتقدات تمثل حاجيات هذه المدنية واذا لم يكن بين المدنية وافكار شعب وعواطفه اتصال فان التربية التي تؤلف هذه المدنية لا يكون لها تأثير فيه وكذلك الحال في الاوضاع المناسبة لبعض الحاجات فانها لا تطابق الحاجات المختلفة ويدرك المرء بأدنى نظر الفرق بين عقول أمم الشرق ولا سيما المساهون والهنود الصينيون وبين عقول أهل الغرب فيجده عظيمًا بحيث يتعذر تطبيق أوضاع بعضهم على الآخر . فان الافكار والمناحي والمعتقدات وطرق العيش تختلف بين الفريقين اختلافاً ظاهراً

فبينما نرى أمم الغرب تشتد كل يوم في نزع مؤثرات الاجداد نجد الشرق يعيش بماضيه الا قليلاً . فالمجتمعات الشرقية ثابتة في عاداتها وهي في الشرقيين خالدة على صورة ليست لها في أوربا اليوم . فان المعتقدات التي أضعناها يعنون هم بالاحتفاظ بها جد الاحتفاظ والعائلة التي تقوضت من أساسها في الغرب لم تبرح متينة الدعائم في الشرق على نحو ما كانت منذ أبعء عصور التاريخ . والمباديء التي فقدت من تأثيرها فينا أصبحت محافظة على تأثيرها فيهم . غاية الشرقيين قوية جداً وحاجاتهم ضعيفة كل الضعف وغاية الغربيين غير أكيدة وحاجاتهم عظيمة جداً . فالدين والاسرة والسلطة العالية والعادات وجميع هذه الأسس القويمة في المجتمعات القديمة التي نزعها الغرب من أصولها قد احتفظت بنفودها في الشرق ولا من منازع لها . وذلك لان الاهتمام بالاستعاضة عنها لم ينفذ بعد الى عقول الشرقيين ويتجلى الفرق الفاحش بين الشرق والغرب من أوضاعهما فان جميع الاوضاع السياسية والاجتماعية في الشرقيين عربا كانوا أو هنوداً تنبعث خاصة من معتقداتهم الدينية على حين نرى أكثر الشعوب الاوربية تدينناً قد فصل منذ زمن طويل بين الاوضاع السياسية والمعتقدات

ليس في الشرق قانون مدنى بل هناك قانون دينى فقط . وكل جديد مهما كان نوعه لا يقبل الا على شرط أن يكون نتيجة قواعد لاهوتية وليس الاختلاف بين الغربيين والشرقيين في تركيب العقول والأوضاع والمعتقدات فقط بل في أدنى أسباب الحياة ولا سيما في بساطة الحاجات بالنسبة الى تشعب حاجاتها فان مطالب الحياة عندهم قليلة جداً اذا قيست بمطالبنا وتشعباتها ولذلك يلقي الشرقي اذا قبل

المدنية الاوربية لأنها تلزمه بامور لا يستطيع تطبيقها ولا تستلزمها حالته وبيئته فتقتضى فيه على ما وردته من ماضيه وتركه لا يعرف كيف يستقر أمام الحاضر والنتيجة القطعية الوحيدة من التعليم الأوربي سواء كان في الزنجي أو الهندي هو أن تتبدل الصفات الارثية فيه دون أن تتمكن من ابلاغ التربية الاوروبية اليه . وقد يحصل الشرقى على قطع من الافكار الاوربية ولكن انتفاعه بها يكون بعواطف وأفكار وحشية أو نصف متحضرة وتتقاذف عقول الشرقيين آراء متضاربة ومبادئ في الاخلاق متعارضة . ولا يخذعنا هذا الطلاء الضعيف الذى يظهر فيه الشرقى اذا لقف شيئاً من التربية الاوربية فان ذلك أشبه باللبسة الموقته في دور التمثيل لا يجب أن ينظر اليها عن أمم

قال ولقد حدثت مئات من المرات أنساً من أدباء الهنود تخرجوا في جامعات انكلترا أو الغرب فثبت عندي أن بين أفكارهم وافكارنا ومنطقهم ومنطقنا وعواطفهم وعواطفنا فروقا واسعة المدى وهوى سحيقة بعيدة . وليس معنى هذا أنه يستحيل على الشرقى أن يكون كالأوربي حذو القذة بالقذة . كلا فان الشرقى يكون كالغربي ولكن بعد تعاقب الدهور والأعصار كما وقع لأجدادنا فأنهم ظلوا نحو الف سنة يتخبطون في حالة التذبذب والتوحش حتى تأصل فيهم حب المدنية القديمة والأخذ منها . وقانون النشوء الاجتماعى كالنشوء الطبيعى لا بد من أن يستوفي حظه .

والسبب المهم في أن مدينتنا عاجزة عن الوصول الى الشعوب المنحطة هو انها متشعبة مركبة والشرقيون أمم من السداجة اقرب فاقتضت لهم البسائط فانا نرى المدنية الاسلامية وما أثره المسلمون في الشرق ولا يزالون يؤثرونه قد نجحت في هذا المعنى ذلك لان الامم التي دانت للاسلام كانت أو هي في الغالب شرقية لها من العواطف والحاجات والعادات في الحياة ما يماثل عواطف الفاتحين وحاجاتهم وعاداتهم . وليس في قبولهم أصول المدنية الاسلامية ما يتنافر مع حاجتهم وعلى العكس اذا صحت عزيمتهم على الأخذ بالمدنية الغربية فأنها تدك بنيان ما تعودوه بما فيها من الاختلاط والارتباك

\* \* \*

قال وقد زعم المؤرخون أن التأثيرات العامية والاخلاقية العجيبة التي أثرها المسلمون في الارض كانت بفضل مادياتهم ولكن لا يصح اليوم أن نجعل بان هذه المؤثرات قد دامت في مجراها حتى بعد أن أضع المسلمون نفوذهم السياسي فان المسلمين في الصين يزيدون اليوم على ٢٠ مليوناً وفي الهند على خمسين أي أن سوادهم أوفر من العهد الذي بلغت فيه دولة المغول أرقى درجات عزتها ومنعتها ولا يزال هذا المدد في نمو . ان المسلمين بعد الرومان هم الامه الممدنة الوحيدة التي نجحت في نقل تهذيبها الاجتماعي ودينها وأوضاعها وعلومها الى العناصر المختلفة التي افتتحتها وتسربت بينها . هذه التأثيرات لا تضمحل بل نراها على المكس آخذة بالنمو تتمدى الحدود التي بلغتها في أيام القوة المادية . ان القرآن وما اشتق منه هو الى الفطرة بحيث يلتئم مع حاجات الشعوب الاولية حتى أن قبوله آخذ حكمه على مر الدهور لا يعوقه عائق . وحيث ينزل المسلمون ولو كانوا تجاراً سذجاً تدخل أوضاعهم ومعتقداتهم وكلما توغل الرواد من أهل المدينة الحديثة في صميم أفريقية شاهدوا قبائل تنتحل الاسلام . والمسلمون الآن يمدنون قبائل أفريقية على نحو ما يستطيعون ويجاهدون في تلك القارة الغربية على حين يطوف الاوربيون في الشرق فاتحين كانوا أو متجرين ولا يتركون وراءهم أثر النفوذ أدبي .

فلا التربية ولا الاوضاع ولا المعتقدات ولا غير ذلك من الاسباب التي يتذرع بها الاوربيون للتأثير في الشرق تفيد في تمدينه ولا سيما في الشعوب المنحطة منه . وحالة اليابان لا تقوم دليلاً على تقض هذه القضية لان اليابان وقد بلغت درجة راقية في المدنية كان السبب في تمدنها أنها قبلت نتایج المدنية الغربية بجماتها دفعة واحدة فلم تغير في الحقيقة قوانينها الاساسية ولا معتقداتها ولا أخلاقها فهي تشبه شريفاً من أرباب الاقطاعات عاد الى الحياة بعد موته فتعلم استعمال القاطرات واطلاق المدافع .

هذا رأى الفيلسوف غستاف لوبون في مدنيتنا وحالتنا الاجتماعية وتأثرنا بالمدنية الغربية وصلاتنا مع أهلها وصلاتهم معنا وهو كما ترون صحيح من أكثر وجوهه لاشائبة للتعصب والتقاليد فيه وقد حمد حالتنا من حيث تكوين الاسرة

والبيوت والسداجة. وعسانا اليوم وقد زاد اختلاطنا بالغرب لا نأخذ منه الا ما تمس حاجتنا اليه ونبقي على القديم النافع فقد قيل إن القوة الحقيقية في كل مملكة ما عرفت به من الاخلاق الطبيعية . وتقليد الاجانب على أى صورة كانت عار على الوطنية

لم يخل عصر من العصور من اختلاط العرب بالغرب سواء كان بطرق الفتح أو التجارة أو طلب العلم أو للجوار وقد قصد اوربا كثير من رجالنا منذ زهاء عشرة قرون وكذلك الاوربيون وصلوا الى بلادنا منذ القديم وكان الطليان أسبق الأمم الى هذا الاختلاط كما رأيتهم ومع أنه على أئمة ولاسيما منذ استولى نابليون على مصر وجانب من الشام لم يبرح الشرق شرقا والغرب غربا أخذوا منا وأخذنا منهم ولكن ما أخذوه عنا مزجوه في حضارتهم وكذلك كانت حالنا معهم وما اقتبسناه من نور علومهم وأساليب تربيتهم في القرن الماضي وهذا القرن

ولا غضاضة علينا اذا وقفنا معاشر العرب مع الغرب عند حد الأخذ من حضارته وعاداته فان التخوم اذا تناءت تختلف أهويتها وطباع أهلها فما يفيد من القوانين هنا لا يطبق على سكان ما وراء النهر مثلا وما ينفع سكان الارجننتين لا يتأق تطبيقه على أهل الصين . ومن أسرار هذا الكون أن كل أمة تحرص على سلطانها ولسانها وأوضاعها وتدافع عنها جهدها والوقائع التاريخية الكبرى تظهر آثارها في الأمم حتى بعد قرون ففارات الصليبيين والتاتار على هذا الشرق الاقرب أثرت فيه قرونا . وغارات العرب على أوربا أثرت فيها بحيث يشهد التاريخ ان العرب يوم زحزحوا عن بواتيه في فرنسا على يد شارل مارتل هم غيرهم يوم جلوا عن أرض الاندلس

اذا كان الاختلاف طبيعياً بين أهل قطرين لسان كل منهما يختلف عن صاحبه أما العادات والتقاليد فواحدة الا قليلا أفلا يكون أشد بين أمم متباعدة في معظم مشخصاتها ومقوماتها؟ ونضرب لذلك مثال أمتين حيتين في الغرب : البلجيك وسويسرا وهما مملكتان صغيرتان أدهشتا العالم بمدنيتها ووطنيتها وحريتها ولم يمنع اختلاف العناصر فيهما من اتفاق كلمة كل منهما على الثاني في

حب الكمال بحيث أصبح في أهلها عادة وجبلة وغدتا نموذجاً ينقل عنه حتى أرقى شعوب أوروبا كعما في المدينة من مجاوريهما كهاو الحال في البلجيك فأنها بين ثلاث ممالك هي مصدر لمدينة انكلترا وفرنسا والمانيا. وسويسرا وهي بين أربع المانيا وفرنسا والنمسا وإيطاليا وكل هذه الممالك الكبرى تغبط تينك المملكتين الصغريين على أوضاعهما واستعدادهما . بلاد البلجيك مؤلفة من عنصرين مختلفين في الاصل وهما العنصر الفلاندرى أو الفلامندى سكان الشمال والعنصر الفالونى سكان الجنوب وهم فرانسيس يجيدون التصوير والآخرون الموسيقى<sup>(١)</sup> ولكن بلاد الموسيقى لا تحلمهم فتقبلهم فرنسا وإيطاليا والمانيا وأسبانيا وحال البلجيك مع الدول المجاورة حال سورية مع غيرها على عهد الاتراك فقد كانت هذه البلاد تضيق على رحبها بانبائها فيهاجرون الى القارات الخمس في طلب الرزق ولكن أين مساحة بلاد البلجيك من مساحة بلادنا<sup>(٢)</sup>

والنزاع بين الفلامنديين والفالونيين على أئمة بشأن اللغة فتجد الفلامنديين سكان الفلاندر من أحرص الامم على لسانهم وقد حاولت البلجيك بعد سنة ١٨٣٠ أن تفلس الفلاندر فثارت هذه على كل ما أريدت عليه ولم تستطع ذلك بل احتفظت بروحها وأخلاقها وأفكارها وتقاليدها وعواطفها وأساليب تصورها قال شاريو : الامة بلغتها ومامن أمة بدون لغة . ولذلك تجد الجدال قائماً قاعداً في فنلندا وبولونيا والنمسا والمجر وسويسرا وأسبانيا بل وفي كل مكان في هذا الشأن

دعنا نابليون الاول أرض بلجيك بانها ساحة حروب أوروبا وسماها اليزهركلو ساحة اختبار أوروبا وسماها بعضهم مغرس بقولها ، كما سموا الاندلس حديقة زهرها ، وكما أصبحت سويسرا بالعلم مصيف أوروبا ومشتاها قلنا إن اللسان منبع الخصام بين كثير من الامم المختلطة العناصر ومع أن في

(١) بلجيك الحديثة لشاريو H. Charriaut : La Belgique moderne

(٢) سويسرا الحديثة لدوزا A. Dauzat : La Suisse moderne

سويسرا ثلاثة عناصر وهي الالماني والفرنساوي والايطالي وأربع لغات وهي الالمانية والافرنسية والايطالية والرومانشية فانها أشبه بفسيفساء من الشعوب تلاققت وامتزجت وتعاشرت ونشأت من هذه العناصر الممزوجة روح سويسرية - أصر غريب لم يعهد له نظير في امة من الامم وأغرب منه ان ثلاثة من فلاحي سويسرا يؤسسون هذه الجمهورية السعيدة منذ عشرة قرون فتبلغ بالعلم هذه الدرجة من الرقي وما أظن في الارض أمة سعدت بحكومتها كالامة السويسرية ولا شعباً أكثر لطفاً من اهلها وهم في غناهم واقتصادهم يعمون الامم الغنية المقتصدة . وكان امتزاج الفكر الجرمانى بالفكر اللاتينى من آكد الاسباب في هذا التركيب الغريب فاخذ السويسري عن الالماني صفات التدين والرزانة والشعور بالتضامن والنظام والثبات والرغبة في الماديات والحقائق واقتبس من العنصر اللاتينى تقاليد البشاشة والادب وصحة الحكم وحسن التقليد والظرف . ولم تصبح سويسرا جمهورية بل فسيفساء مؤلفة من عدة جمهوريات صغرى ملونة براءة غريبة في حجمها ونظامها وأفكارها وأخلاقها السياسية (١)

هذا مثال من تشدد الامم حتى الصغرى منها في عاداتها ولسانها فاحر بالعرب أن يحافظوا على شخصياتهم وكانوا في القديم أشبه بأمة الرومان يفتحون البلاد ويدخلون اليها من عاداتهم وأخلاقهم ماهو في استطاعتهم ويأخذون عنها ما ينفعهم ومالا غنة لهم عنه فاصبحت بلادهم مهد الوطنية السياسية في أيامهم كما هي الحال اليوم عند الامم التي عظمت فيها الحكومة وانحصرت السلطة في وؤسها وأعظم مثال لها الامم الفرنسية والالمانية والروسية والاطليانية والاسبانية كما قال ديمولان في كتابه سر تقدم الانكليز السكسونيين : وكل أمة في القديم والحديث تأخذ من غيرها ما يناسبها أو تدخله الاحوال في روحها وجسمها على غير شعور منها فانا شاهدنا في الاوربيين مثالا مجسما من هذا المعنى

قال جول هورى (٢) : يمكن ارجاع الامم الرئيسة في أوروبا الى ثلاثة عناصر مختلفة . العنصر اللاتينى والعنصر الجرمانى والعنصر الاسكلافونى فالعنصر

(١) مجلة المقتبس ص ٢٦٩ و ٣٤١ م ٨

(٢) كتاب برلين لجول هورى Jules Hury : En Allemagne, Berlin

اللاتيني هم الطليان والفرنسيس والاسبانيون والبرتغاليون وقد ورثوا من الرومان مدنيّتهم ولسانهم والالمان والسويسريون والانكليز والسويديان والدايمركيون والهولانديون هم من الشعوب التويونية والروس والبولونيون هم من الشعوب الاسكلافونية وأن الامم التي كان تهذيبها العقلي من أصل لاتيني هي أعرق في المدنية من غيرها ورثت الاقليلا من ذكاء الرومان ومهارتهم في إدارة أعمال هذا العالم وقبل أن تتأصل فيهم النصرانية قاموا بإنشاء معاهد اجتماعية بنيت على أساس الوثنية

ولما جاءت أمم الشمال تفتح بلادهم قبلت هذه الامم أخلاق البلاد التي افتتحتها . قال: وهذه الملاحظات تختلف ولاشك باختلاف الأهوية والحكومات والحوادث التاريخية فقد أثرت سلطة الكنيسة مثلاً في ايطاليا آثاراً لا تمحى وكان من نتائج الحروب الطويلة مع العرب ان قويت العادات العسكرية وفكرة الاقدام على العظام في الاسبانيين ويقال بالاجمال ان هذا الجزء من أوروبا الذي اشتقت سنته من اللسان اللاتيني وامتزج منذ الزمن الاطول بسياسة رومية تقرأ في صفحاته آثار مدنية قديمة كانت فيما مضى وثنية . واذا كانت الامم الجرمانية قاومت سلطة الرومان لم تنتشع بالمدينة الا مؤخراً دخلتها من طريق انتشار الديانة المسيحية فلم تلبث في الحال أن انقلبت من نوع من البربرية الى مجتمع مسيحي أما مدينة الاسكلافونيين فهي أحدث المدن وأسرعها من سائر مدن الشعوب ولذلك لا تزال ترى فيها حتى اليوم آثار النقل والاحتذاء وتفقد فيها صفات الأبداع والاختراع



ولو شئنا أن نعدد الامثلة من هذا القبيل لأصاب نفوس الحضور سأم ولكن اكتفينا بما أوردنا على مسامعكم برهاناً على تمازج أجدادنا العرب بأهل الغرب تمازجاً حمد الاخلاف عاقبته وأن جودنا عن الاخذ بكل ما في مطاوي مدنيّتهم من الاوضاع أمر طبيعي يعد في باب حبنا لوطنيّتنا واذا كانت أوروبا ظلت تتسكع في دياجى الجهالة قرونا حتى صحت نيتها على اقتباس المدنية القديمة

الرومانية واليونانية والعربية أفلسنا نحن أسرع منها خطى ولقد رأيتنا في قرن أو بعض قرن اقتبسنا طرفاً صالحاً لا يستهان به من علوم الغرب وقوانينه في ترتيباته ومصطلحاته . وهالك الآن جملة لامام العرب في العقل والعلم أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله فهي فصل الخطاب في هذا الباب استمعوا اليها بقلوبكم فانها مثال العلم الناضج منذ أحد عشر قرناً وانموذج البيان العربي أذكرها لا على سبيل التفاضل بين الامم بل للعبرة والحكمة

قال الجاحظ في رسالته الى الفتح ابن خاقان في مناقب الترك وعامة جنود الخلافة إن كل أمة وقرن وكل جيل ونبي أب وجدتهم قد برعوا في الصناعات وفضلوا الناس في البيان أو فاقوهم في الآداب أو في تأسيس الملك أو في البصر بالحرب فانك لا تجدهم في الغاية وفي أقصى النهاية إلا أن يكون الله تعالى قد سخرهم لذلك المعنى بالاسباب وقصرهم عليه بالعلل التي تقابل تلك الامور وتصلح لتلك المعاني لان من كان متقسم الهوى مشترك الرأي متشعب النفس غير موافق على ذلك الشيء ولا مهيباً له لم يحدق من تلك الاشياء شيئاً بأسره ولم يبلغ فيه غايته كأهل الصين في الصناعات واليونانيين في الحكم والآداب والعرب فيما نحن ذا كروه في موضعه وآل ساسان في الملك والأتراك في الحروب . الا ترى أن اليونانيين الذين نظروا في العلل ثم لم يكونوا تجاراً ولا صناعاً بأكفهم ولا أصحاب زرع ولا فلاحه ولا بناء وغرس ولا أصحاب جمع ومنع وحرص وكذا وكانت الملوك تفرغهم وتجري عليهم كفايتهم فنظروا حين نظروا بأنفس مجتمعة وقوى وافرة واذهان فارغة حتى استخرجوا الآلات والادوات والملاهي التي تكون سجماً للنفس وراحة بعد الكد وسروراً يداوى قرح الهموم . فصنعوا بعد المرافق وصاغوا من المنافع كالقسطونات والقبانات والاسطرلابات وآلة الساعات والكونيا والكشتوان والبركار وكأصناف المزامير والمعازف وكالطرب والهندسة واللحون وآلات الحرب كالمجانيق والعرادات والرتيلات والديابات وآلة النفاط وغير ذلك مما يطول ذكره . وكانوا أصحاب حكمة ولم يكونوا فعلة يصورون الآلة ويخترطون الاداة ويصوغون المثال ولا يحسنون العمل به ويشيرون اليها ولا يمسونها يرغبون في العلم ويرغبون عن العمل . فاما سكان

الصين فهم أصحاب السبك والصبياغة والافراغ والاذابة والاصباغ العجيبة  
وأصحاب الخرط والنحت والتصوير والنسج والخط ورفق الكف في كل شيء  
يتولونه ويعانونه وان اختلف جوهره وتباينت صنمته وتفاوت ثمنه . فاليونانيون  
يعرفون العلل ولا يباشرون العمل وسكان الصين يباشرون العمل ولا يعرفون  
العلل لان أولئك حكماء وهؤلاء فعلة وكذلك العرب لم يكونوا تجاراً ولا صناعاً  
ولا أطباء ولا حسابا ولا أصحاب فلاحه فيكونوا مهنة ولا أصحاب زرع  
لخوفهم من صغار الجزية ولم يكونوا أصحاب جمع وكسب ولا أصحاب احتكار  
لما في أيديهم وطلب ما عند غيرهم ولا طلبوا المعاش من السنة الموازين ورؤوس  
المكاييل ولا عرفوا الدوايق والقراريط ولم يفتقروا الفقر المدقع الذى يشغل  
عن المعرفة ولم يستغنوا الفناء الذى يورث التبليد ( ترك الاتجاه لشيء ) والثروة  
التي تحدث الغرة ولم يتحملا ذل القط فيميت قلوبهم أو يصغر عندهم أنفسهم  
وكانوا سكان فياف وتربية عراء لا يعرفون الغمق ولا اللثق ( أى ركوب الندى  
الارض وركود الريح وكثرة الندى ) ولا البخار ولا الغلظ ولا العفن ولا التخيم  
أذهان حداد ونفوس مفكرة فحين حملوا حدهم ووجهوا قواهم الى قول الشعر  
وبلاغة المنطق وتشقيق اللغة وتصاريف الكلام وقيافة البشر بهد قيافة الأثر  
وحفظ النسب والاهتداء بالنجوم والاستدلال بالآثار وتعرف الانواء والبصر  
بالخيل والسلاح وآلة الحرب والحفظ لكل مسموع والاعتبار بكل محسوس  
وإحكام شأن المناقب والمثالب — بلغوا في ذلك الغاية وحازوا كل أمنية وبيعض  
هذه العلل صارت نفوسهم أكبر وهممهم أرفع وهم من جميع الأمم أنخر  
ولأيامهم أذكر . وكذلك الترك أصحاب عمد وسكان فياف وأرباب مواش وهم  
أعراب المعجم كما أن هذيلاً أكراد العرب . فحين لم تشغلهم الصناعات ولا التجارات  
ولا الطب ولا الفلاحة والهندسة ولا غرس ولا بنيان ولا بثق أنهار ولا جباية  
غلات ولم تكن هممهم غير الغزو والغارة والصيد وركوب الخيل ومقارعة  
الابطال وطلب الغنائم وتدويخ البلدان وكانت هممهم الى ذلك مصروفة وكانت  
لهذه المعاني والاسباب مسخرة ومقصورة عليها وموصولة بها — أحكموا ذلك  
الامر بأسره وأتوا على آخره وصار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم ولذتهم ونخرهم

وحدثهم وسمهم فلما كانوا كذلك صاروا في الحرب كاليونانيين في الحكمة وأهل الصين في الصناعات والاعراب فيما عددنا ونزلنا وكآك ساسان في الملك والسياسة قال الجاحظ وليس في الارض كل تركي كما وصفنا كما أنه ليس كل يوناني حكيم ولا كل صيني في غاية من الخدق ولا كل اعرابي شاعراً فائماً ولكن هذه الامور في هؤلاء أعم وأتم ، وفيهم أظهر وأكثر اه

وقال الجاحظ في نجر السودان على البيضان يميز بين اليهود والصينيين : وأما الهند فوجدناهم يقدمون في النجوم والحساب ولهم الخط الهندي خاصة ويقدمون في الطب ولهم أسرار بالطب وعلاج فاحش الادواء خاصة ولهم خرط التماثيل ونحت الصور بالاصباغ تجرد من المحاريب وأشباه ذلك ولهم الشطرنج وهي أشرف لعبة وأكثرها تدبيراً وفطنة ولهم السيوف القلمية وهم ألعب الناس بها وأحدقهم ضرباً بها ولهم الرقي النافذة في السموم وفي الاوجاع ولهم غناء معجب ولهم السكناكة وهي وتر واحد يمر على قرعة فيقوم مقام أوتار العود والصنج ولهم ضروب الرقص والخفة ولهم الثقافة عند الثقاف خاصة ولهم معرفة المناصفة ولهم السحر والتدخين والدمازكية ولهم خط جامع لحروف اللغات وخطوط أيضاً كثيرة ولهم شعر كثير وخطب طوال وطب في الفلسفة والادب وعندهم أخذ كتاب كلية ودمنة ولهم رأي ونجدة وليس لاحد من أهل الصين ما لهم ولهم من الرأي الحسن والاخلاق المحمودة مثل الاخلة والقرن والسواك والاحتباء والفرق والحضاب وفيهم جمال وملح واعتدال وطيب عرق والى نسائهم تضرب الامثال ومن عندهم جاؤا الملوك بالعود الهندي الذي لا يعد له عود ومن عندهم خرج علم الفكر وما اذا يكلم به على السم لم يضر وأصل حساب النجوم من عندهم أخذها الناس خاصة .

هذا أجمل وصف للأمم القديمة في الحضارة وما امتاز به الأبيض والأصفر والأحمر والأسود والفروق لا ترتفع من بين الأجيال الا بالتربية والتهذيب والعلوم الأدبية الصحيحة وتبقى كل أمة في العاقبة على ما لا غنية لها عنه وهو من دواعي أفقها وتاريخها - والرجاء معقود بأن يكون الدور الجديد الذي تدخل فيه العرب اليوم دور التجدد والنشوء الاجتماعي الكبير فنبتد كل مالا يمس

أصلاً من أصولنا القديمة وتقبل كل جديد فيه النهوض والاعتلاء وأن يعطينا الغرب القدر الذي أخذه من علم أجدادنا نستعين به على قيام أمرنا فان الأيام دول والدهر بالناس قلب حول فسبحان من لا يشغله شأن عن شأن وهو القابض الباسط المعز المذل .

## ارتقاء العرب والخطاطهم<sup>(١)</sup>

بحثت الأمم المتحضرة منذ الزمن الاطول في الاخلاق وكان لمؤلفي العرب حظ وافر في هذا الموضوع شأنهم في أكثر العلوم التي عالجوها ونجحوا في الخوض فيها . وأكبر العلماء على أن الاخلاق تصلح بالتعليم والتربية ولا سيما ما كان منها مستفاداً بالمادة والتدريب ، وليس من الغريزة في شيء ، فان من غلبت عليه السويداء أو الحدة مثلاً لا يطمع في استصلاحه الا بطول الزمن والتوفر على المعالجة والمرء ينتقل بالتأديب والمواعظ إما سريعاً أو بطيئاً . ومن قال ان الخلق طبيعي لا يخرج الانسان عن أحكامه فقد قال على رأى ابن مسكويه بابطال قوى التمييز والعقل ورفض السياسات كلها وترك الناس همجاً مهملين وبترك الاحداث والصبيان على ما يتمق أن يكونوا عليه بغير سياسة ولا تعليم .

لا جرم أن للأقليم كالحرارة والبرودة والاعتدال والخصب والقلة تأثيراً كبيراً في الطباع وهي من جملة العوامل في ارتفاع الامم وتدليها ولكن ما ينقص بتأثير المحيط والبيئة والهواء قد تجبره التربية .

فقد رأينا العرب قاموا من جزيرتهم وهي في غاية الحرارة وكانوا نصف متمدنين فانتالوا على الشرق والشمال ففتحوا فارس والشام ومصر وغيرها ولم يعقهم عائق من اقليمهم وحرارته واوغلوا عليهم . رأيناهم وقد طهر الاسلام من اخلاقهم وهذبهم وعلمهم الصبر والمضاء والرفق والتسامح والترفع عن الدنيا فنشروا في البلاد المغلوبة في سنين قليلة دينهم ولسانهم على صورة لم يكده يسبق لها مثيل في العالم . ولا نذكر أنه كتب لأمة أن غلبت ونمت بمثل هذه السرعة فغلبت وجه الأرض وأطاعتها العناصر والاديان المختلفة في آسيا وافريقية وأوربا

(١) محاضرة القيناها بدمشق على جماعة المعلمين والمعلمات في مدارس الحكومة

فلو كان للحرارة في قيام الأمة أو الفرد كل ما يدعيه بعضهم من التأثيرات لما  
انشأت العرب مدنيها ولا ارتفعت في الارض قروناً كلمتها . قال بنتام صاحب  
روح الشرائع : الظاهر كل الظهور ان سكان البلاد الحارة أقل قوة ونشاطاً من  
سكان البلاد الباردة وحاجتهم للعمل أقل لخصب أرضهم وهم أميل الى العشق  
واللذات تبادرهم مظاهرها

وهذا القول لا يصح على اطلاقه لأن التاريخ قد أتى بأمثلة كثيرة قديماً  
وحديثاً على نقض هذا الرأي فالعرب في القدماء واليابان في المحدثين أكبر دليل  
على نقض قول بنتام واذا كان للهواء بعض التأثير في النشاط فان للبرودة تأثيرات  
أخرى تعوق العقل الانساني عن كل ما ينتظر منه . واذا قيل ان شمالي كل مملكة  
في أوروبا وأميركا أرقى مدنية من جنوبها في العادة فلذلك عوامل أخرى تاريخية  
وسياسية فيما نرى واذا كان شمال فرنسا يتقدم جنوبها من حيث الارتقاء وشمال  
ألمانيا وشمال ايطاليا أرسخ في المدنية من جنوبها وأميركا الشمالية أعلى كهبا  
في هذا المعنى من أميركا الجنوبية فقد رأينا جنوب أوروبا على عهد الرومان  
والعرب يتقدم شمالها بل رأينا جنوب بلاد العرب أرقى من شمالها على عهد عز  
الأمة العربية ، وهذا يرجع الى الحكومة في أغلب الحالات واتخاذ البلد الفلاني  
مركزاً لتتوفر العناية به وبأهله فتتناول المدنية الأقرب فالأقرب من نقطة  
دائرتها .

فالقول بأن شعوب البلاد الحارة يحكم عليها اقليمها فلا تقوز بكبير أمر  
في المجتمع الانساني قول فيه نظر لأن العقل والتهذيب اللذين بهما حياة الممالك  
وسقوطها ينشآن من البلاد الحارة كما ينشآن من البلاد الباردة .  
ولو اقتضى أن يكون سكان كل بلاد باردة راقين في مناحيهم وحضارتهم  
لاستازم أن يكون سكان سبيريا أرقى من سكان انكلترا ولو كان أهل كل بلاد  
حارة منحطين لما شاهدنا المصريين اليوم أصبحوا بالتربية في أربعين سنة يشبهون  
الراقين من أهل أوروبا وأميركا بل ولترتب على ذلك أن يكون سكان جنوبي  
أفريقية وأكثرهم من جالية هولاندة منحطين مثل جيرانهم السودان لغلبة  
الاقليم على طباعهم بعد بطون وأجيال .

قال فوليه الفيلسوف الفرنساوى : لقد خرج كثير من الشعوب الفاتحة من البلاد الحارة مثل العرب على عهد عمر وعثمان وكذلك الموحدون والمرابطون أما القول بأن البلاد الحارة تولد القسوة على رأى مونتسكيو فقد شوهدت القسوة ماثلة للعيان فى تاريخ عامة بنى الانسان . رأيناها متجلية فى اليونان ورومية وايطاليا واسبانيا وانكلترا وروسيا كما ظهرت فى مصر وأشور وفارس . ولقد سكن الاسكيمو فى بلاد بادرة فكانوا أكثر توحشاً من الذئاب والذئبة التى ملأت صحاريهم . اه

بغداد من البلاد الحارة نشأت فيها مدينة عربية مدهشة ولما انتظمت حكومتها وحسنت تربية سكانها أفاضت النور على الارض كلها فعد عصر المأمون فيها من العصور الزاهرة بكل العلوم والصناعات كما عد عصر بركليسى فى أتيذة وعصر أغسطس فى رومية . وتعد القسطنطينية من الأقاليم الباردة المعتدلة حاول محمد الفاتح أن ينشئ لها مدينة مع ما كان فيها من أثر لا يستهان به من بقايا عز قديم فلم يوفق الى ذلك فغلبت طباع الترك طباع الاقليم . والترك أمة صربية لم تعهد للترقى الحقيقى عصراً وكانت قرائح أبنائها محصورة على الدوام فى الحرب فقط فلما كانت الغلبة لهم والفتوح مواتية والعيش رخاء لم يتأدبوا بأدب النفس ولم يدخلوا فى التربية الصحيحة من أبوابها فلذلك لم تستقم لهم حضارة ثابتة وقضى الترك على آخر آثار مدينة البيزنطين يوم حلوا محلهم واستولوا على تراثهم كما قضاوا على البقية الباقية من مدينة العرب وغيرهم من الامم ذات المجد المعتبر ولم يتيسر لهم وبالإسف اقامة شيء جديد وليس الذنب فى ذلك كله على طباع رسخت فيهم بل العيب كل العيب على نظام حكومتهم وغلوهم فى تكبير رقعة مملكاتهم مع سوء ادارتهم فقد رأينا شعوباً أخط منهم جنساً أنشأوا لهم مدينة وأحسنوا لمن انضوا تحت رايهم على الاغلب أما الترك فكان رائدهم فى فتوحاتهم الغزو واستجلاب الغنائم ففتحوا بلاداً يستحيل عليهم ان يخضعوها لسلطانهم أبداً لان أهلها أرقى منهم مدينة وعصراً ولا يرجى أن يكونوا منحطين عنهم أبداً . وفى تاريخ استيلاء الترك على الجريين واليونانيين والرومانيين والصريين والبلغاريين وفى

حالة هذه الامم على عهد الترك وحالتها بعدهم أكبر دليل على أن العبرة في الفتوح بالاخلاق الفاضلة والطباع اللينة واقتباس النافع من أسباب النشوء والارتقاء بالقوس والنشاب والمدافع والحراب

حكى لي أحد قناصل فرنسا على عهد العثمانيين في هذه الحاضرة انه كان قنصلاً في طرابلس الغرب وكان صديقاً لاحد كبار عمال الاتراك هناك وكان هذا لا يفتأ يطعن في العرب ويبدى الاشمزاز من حالهم . فلما عيل صبر القنصل الفرنسي وكان محباً للعرب يعرف لسانهم وتاريخهم ومدنيتهم فاتح صاحبه ذات يوم بالأمر وسأله عن سر كراهيته للعرب فأجابه العامل التركي اني لا أعرف لذلك سبباً الا ما أراه من انحطاطهم . فقال له : سأمحك الله ان العرب استولوا قروناً على كثير من البلاد التي استوليتم أنتم معاشر الترك عليها كما استولوا على غيرها ، وهاهي آثار مدنيتهم ظاهرة الى اليوم من بلاد اسبانيا الى بلاد الصين وأنتم قد حكمتهم قروناً أيضاً فأين مدنيتكم ان لم تكونوا قضيتهم على حضارة من سبقوكم وخربتهم العامر منها فاذا انحط العرب فبسياستكم أنفسكم . فدهش العامل التركي ولم ينبس ببنت شفة ورجع عن النيل من العرب .

وعندي ان ذلك العامل لو درس ولو قليلا لغة العرب وتاريخهم لما بدا منه هذا السخف في اسقاط أمة عظيمة جديرة بالتجلة . وهيئات أن يلبسها غير صورتها الحقيقية بمجرد ثرات يلوكها وترهان يدي بها .

ومثل هذا العامل اذا تولى ولاية وكان ذا ارادة قوية يؤخر من تحت يده ولا سيما اذا كانوا عرباً عقوداً من السنين الى الورا ، وبهذه المناسبة أذكر لكم قصة وقعت لي بالذات مع وال من ولاية دمشق على عهد العثمانيين وكان ثنائراً مثل أكثر عمالهم تظنه لأول وهلة على شيء من العلم والفهم حتى اذا ما درست أخلاقه وجدته قاسياً جاهلاً ليس عنده شفقة ولم تتشبع روحه بالتربية الفاضلة وعلمه طلاء كالتصيب الذي يعلقه على صدره ليطراءى لك لأول أمره ذهباً ابريزاً . كتب الى قائم مقام عجولون مرة يقول لي إن أهل قضائه عزموا على ان ينشؤا ستين مكتباً أهلياً لتعليم أحمادهم وانهم جمعوا لذلك المال فهو يرجو ان انتخب له ستين معلماً فشرعت أبحث مدة ثلاثة أشهر عن كفاة يليقون للتعليم فلم أجده سوى ثلاثة

عشر ولما عزمت على تسفيرهم من الخد أخذتهم الى الوالى وذكرت له قضيتهم ليطلع على الامر قبل أن يطلعه عليه جو اسيسه فكان أول سؤال سألهم اياه هل تعرفون التركيبة فلما أجابوا بغير الايجاب امتقع لونه والتفت الي قائلاً : وكيف ذلك فقلت له : أرجو أن يتعلموا ومهمتهم الآن تعليم أبناء الفلاحين مبادئ القراءة والكتابة والحساب والامور الدينية فقط فسكت وانصرفنا . وبعد ساعتين اتتني برقية من قائم مقام عجاون يتوسل الى أن لا أرسل المعلمين بعد ان كان يلح في ارسالهم فعلمت عقيب ذلك ان الوالى أبرق لعامله في جبل عجاون بمد خروجى من عنده يلومه على اعتماده على في انتقاء معلمين لمدارس أهلية . ولما عاتبته الوالى في إحدى المشايا قال لى : وهل أنت وكنت تظن أن الدولة تعطيكم سلاحاً تقاوتونها به . ان من سياستنا ان لاتعلموا . فتألمت نفسى وأقسمت فى سرى أن هذه الدولة لاتدوم وكل دولة تمد جهل الامة سلاحها فى التحكم برقاب من تحمكه تهلك وإياهم . والعدو العاقل خير من الصديق الجاهل .

رجع الى العرب ومدنيتهم — وان أخلاقهم كانت سبباً فى علوهم فلما فسدت فسدوا وتراجع سلطانهم فقد ذكر المؤرخون ان العرب أسسوا أيام جاهليتهم ممالك صفرى فى العراق والشام وانتشروا خلف شبه جزيرتهم ومنهم من سكن بوادى مصر وملكوا بالارث جميع صحارى أفريقية منفصلين من أعلى شمال آسيا برمال كالبحار أمنوا بها هجمات الفاتحين وانفردوا بحريتهم وعظمتهم لجلالة أصولهم وشهامتهم وفصاحة لغتهم الباقية على نقائها وتجروا مع من يأتى الى مراكزهم من تجار الجنوب والمشرق واكتسوا معارف من جاورهم من الامم فكانت الامة العربية متغلبة على من جاورها مدة أربعة آلاف سنة

قال سيد يلبسو صاحب تاريخ العرب : وبما انفردت به الامة العربية من جميل الأخلاق والعادات كانت منذ نشأة أقدم الدول مدبرة لأموورها متأهبة للاغارة على مجاورها فقد استولت على مملكتى مصر وبابل قبل الميلاد بتسعة عشر قرناً ثم أخذ منها ماملكته من البلاد الأجنبية وانحصرت سلطتها فى مملكتها الأصلية فأخذت تحارب الفراعنة وملوك العراق ونجت من تسلط قورش ملك الفرس

والاسكندر المقدوني وبقيت على استقلالها زمن أخذ الرومان العالم القديم ثم جاء النبي ( عليه الصلاة والسلام ) فربط علائق المودة بين قبائل جزيرة العرب ووجه أفكارهم الى مقصد واحد فعلا شأنهم حتى امتدت سلطنتهم من نهر التاج ( المار باسبانيا والبرتغال ) الى نهر الكنجج ( أعظم أنهار الهند ) وانتشر نور المعارف والتمدن في المشرق والمغرب وأهل أوروبا اذ ذلك في جهل القرون الوسطى وكأنهم نسوا ما وصل اليهم من أحاديث اليونان والرومان

وقد غنى العباسيون ببغداد والأمويون بقرطبة والفاطميون في القاهرة بنشر العلوم والفنون ثم تمزقت ممالكهم وفقدوا شوكتهم السياسية ولم تبق لهم الا السلطة الدينية التي استمرت لهم في سائر ارجاء ممالكهم وكان لهم من العلوم والصناعات والاكتشافات ما استفاده منهم نصارى اسبانيا حين طردوهم منها ، فقد العرب في أواخر القرن الثامن بعد الميلاد حماسهم الحربية وشغفوا بالمعارف فابثت قرطبة وطليطلة والقاهرة وفاس ومراكش والرقية واصفهان وسمرقند تناظر بغداد في الأخذ بأسباب العلوم والمعارف ، وقرىء ما ترجم الى العربية من كتب اليونان في المدارس الاسلامية وبذل العرب همهم في الاشتغال بجمع ما ابتكرته العقول البشرية من العلوم والفنون واعرفوا في معظم البلاد خصوصا في الاصقاع المسيحية من أوروبا بابتكارات تدل على أنهم أئمة المعارف وقد مارسوا العلوم الصحيحة على غاية النشاط من القرن التاسع الى القرن الخامس عشر ( من سنة ٢٨٨ - ٩٠٧ هـ )

وقال جيون في كلامه على حماية المسلمين للعالم في الشرق وفي الغرب ان ولاة الأقاليم والوزراء كانوا ينافسون الخلفاء في إعلاء مقام العلم والعناء وبسط اليد في الاتفاق على اقامة بيوت العلم ومساعدة الفقراء على طلبه وكان من ذلك ان ذوق العلم ووجدان اللذة في تحصيله قد انتشرا في نفوس الناس من سمرقند وبخارى الى فاس وقرطبة وقد أنفق وزير واحد لأحد السلاطين ( هو نظام الملك ) مئتي ألف دينار على بناء مدرسة في بغداد ( المدرسة النظامية ) وجعل لها من الربيع ليصرف في شؤونها خمسة عشر ألف دينار في السنة وكان الذين يفتنون بالمعارف فيها ستة آلاف تلميذ فيهم ابن أعظم العظماء في المملكة وابن أفقر الصنائع

فيها غير ان الفقير ينفق عليه من الريع المخصص للمدرسة وابن الغنى يكتفى بمال  
أبيه وكان المعامون ينقدون رواتب وافرة

ذاك رأى سيديليو في العرب وأخلاقهم وما نشأ عنها وهذا رأى جيون  
وإعجابه بمدنيتهم فاذا وقع لتلك النفوس الأبية وذاك العمران المستمر ، لا جرم  
ان لخطاط الشعوب عوامل كثيرة طبيعية وأخلاقية وبهذه العوامل أصيبت  
الأمة العربية كما أصيبت الأمة الاسبانية . فالعرب والاسبان يتشابهون من  
وجوه كثيرة . نشأ العرب كالاسبان من شبه جزيرتهم في الجنوب الغربي من  
أوربا وأولئك نشأوا من شبه جزيرتهم في الجنوب الغربي من آسيا . العرب  
فتحوا بلاداً كثيرة ومنها البعيد الذي وزعوا قواهم في استصفائه وادارته وكان  
يفصلهم عنها البحر ففتحوا الأندلس وصقلية بل وجميع الجزر الكبرى في جنوبي  
أوربا كما توسع الاسبان في فتوحهم على عهد شارل كان فحكوا جزءاً مهماً من  
أوربا ثم ركبوا البحر فاستعمروا معظم بلاد أميركا الجنوبية . ولو تأملنا عوامل  
الانحطاط التي فعلت في الاسبان لاثبتنا لها مثالا في مجتمعنا فقد ذكر نوليه ان  
العنصر الاسباني أصيب بما استنزف دمه وصرف من قواه كل طاهر وحي وكثيراً  
ما أتت عليه أدوار هلكت في خلالها عناصره الحية وطبقاته العالية فان ديوان  
التفتيش الديني قضى على كل من كان من ايمان ومعتقد خاص وفكر مستقل  
وارادة لا تقف أمام ما فيه المصلحة ووجدان لا يلتوى ولا يتحول وعلى ذلك  
العهد وبسوء هذه السياسة تداعت كثير من البيوت والأسر ، ومنها ما كان  
بنوه من أهل الطبقة الممتازة بقراحتها وعقولها فدعا فقدها الى انقراض الصناعة  
والعلوم والآداب .

ولقد استعملت اسبانيا أقصى الشدة في قصاص من خالف دينها الذي تعتقد  
به ثم أخذت تختار ممن تعدهم مؤمنين أناساً هم من أذكيائها وتقضى عليهم  
بالتبتل والترهب فلم يولد لهم واندثرت أنسابهم وذرايرهم . وما من زمن جاء على  
اسبانيا كان فيه السعد والرغد والحياة والنماء على حصة موفورة أكثر من أيام  
الرومان ومن غيرها على عهد الحضارة العربية في القرون الوسطى فكان اذ ذلك  
في اسبانيا أربعون مليوناً من النفوس أرباب صنائع وأهل عمل وفي تلك الايام

قامت فيها المدن الكبرى الجميلة التي لم نبرح نعجب بحسن هندستها ونددهش  
بجرائبها وعلى ذلك العهد كانت زراعتها ناجحة وبفضل هندسة العرب كان الماء  
يجرى الى كل مكان في فلات اسبانيا وقفارها

ثم نشبت حروب شارلكان التي جن بها وأهلك من الاسبانيين كل قوى  
الشكيمة في سبيلها وكذلك ما تذرعت به اسبانيا من فتوحاتها في أميركا وهي  
فتوحات فقد منها المحاربون الاشداء أصحاب العزائم والارادات القوية ثم ان  
طرد اليهود من اسبانيا ( سنة ١٤٩٢ ) وطرد العرب أجمع ( سنة ١٦٠٩ — ١٦١٠ )  
قد حرم اسبانيا من شعب عامل نشيط . وفي أساطير الشعب الاسباني ان اسبانيا  
طلبت الى الخالق منذ البدء سماء جميلة فنالتها وطلبت بحراً جميلاً فرزقته وأماماً  
طيبة ونساء حسناً ففازت بهما ولما طلبت حكومة صالحة رد قورها لانها اذا تم لها  
ما تريد تصبح جنة أرضية لا محالة . قلنا وهكذا كان شأن الشعب العربي تفرق في  
جنوبي أوروبا وشمالى أفريقيا وغيرها وجاءت عليه سبعة قرون وهو السائد في  
العالم بسياسته وعلمه وصناعاته وآثاره فكان قوله الفصل وسياسته هي الرشيدة  
فلما أخذ بعض ملوكه يحاربون العقل ويمادون الفلسفة بل يقتلون أهلها وجدوا  
بأن أوصدوا باب الاجتهاد في كل شيء وزهدوا في الصنائع النفيسة مدعين أنها  
مما يحظره الشرع مع أن الشرع مرن يليق لكل عصر ومصر . تسربت اليهم الخرافات  
فانشأوا يمتقدون بالقضاء والقدر على خلاف ما كان يعتقد أهل الصدر الأول  
فقل فيهم أرباب البصيرة وضعفت فيهم الأسر الزكية . ثم ان الحروب والفتن  
الاهلية والخارجية التي تنازعتهم قروناً قد هلك فيها أناس من أهل الطبقة النبيلة  
فيهم، ومنهم من لم يعقب والفتى الذي خلف أولاداً فطروا على الترف والرفاهية  
فاسرفوا في أموالهم وقواهم في الموبقات فدثروا ودثرت أنسأهم — ومما عاق  
مجتمعا في ميدان الترقى تسلط رجال الدين على جمهور الشعب وعلى أكثر  
الحكومات زمناً طويلاً فساقوها الى دركات التأخر بحسب أهوائهم وضعف  
مداركهم وعلمهم الناقص ومن رجال الدين والقضاء من ليس لهم من العلم الا  
المهائم ومن الأخلاق الا اختراع الطرق السافلة لاخذ الأموال بالباطل . وما برحت

الحكومات التي تسلطت على العرب تقرب عن قصد الجاهل من أهل تلك الطبقة على العالم فيعيب الجاهل بالمقدسات ويستحل المحرمات عن علم وعن غير علم حتى جاء زمن على الأمة كانت فيه جاهلة متمصبة فقيرة ذليلة متسفلة في أخلاقها وعاداتها . ومن عيوب الحكومات التي استولت علينا وكان أثرها ظاهراً في الاخلاق اعتماد الناس على الشفاعات والمصانعات والرشوات حتى كان الملك نفسه اذا لم يهد اليه حامله هدية يريد بها يعزله أو يقتله فكانت الأمة من أرقى رجل يحكم في أرواحها الى أدنى الطبقات فيها بين راس ومرتش وسارق ومسروق فضغفت ملكة الشم وعزة النفس والمفاداة والأمل وحل مكانها الدل والكسل واليأس ثم ان تلك الحكومات المشؤمة لم تنظم شؤونها ولم يكن لها تسلسل في أفكارها فما كانت تقرره وتعتمد عليه من القوانين زمن الحاكم الفلاني يأتي خلفه فينتفضه من أساسه ويبتدع غيره ولذلك لم يقم لها عمل يذكر من أعمال العمران لان حكماها يحكون باذواقهم فهم أبداً ما بين مبرم وناقض يعيب الخلف بما تعيب فيه السلف .

ومن جملة الأمور التي عمت بها البلوى فساد نظام البيوت بتمدد الزوجات والاكثر من التسرى على غير داع ففسد كثير من الأسر ونفدت نيات الأولاد وقل تبادل الحب بين أبناء الأب الواحد وانحطت التربية ولم تنتقل ثروة قروناً من الاجداد الى الاحفاد حتى ولو وقفها صاحبها الأول اذ يجيء أناس من بعده يستحلون أكلها وتغيير شرطها . ثم ان التربية الاتكالية تأصلت في الأمة حتى لا ترى فيها على الاكثر الارجال يفكر في الطرق القريبة للأثراء والراحة فان كان ابن ذى نعمة ينتظر منذ وعيه على نفسه أباه أو أمه أو مورثه حتى يموت فيستمتع على هواه بالمال من دون تعب ويطلق لشهوته العنان والغالب أن ابن الموسر لا يعمل ولذلك قلما دامت ثروة هنا ثلاثة بطون وقلما رأينا شبانا يعتمدون على أنفسهم في تحصيل الثروة ويمدون الماهر فيهم من يساعده التوفيق فيتزوج من فتاة عندها مال غير ناظرين الى شروط الزواج بين المتزوجين . ولحفظ الثروة رأت بعض الاسران تتساهل في تزويج الاقارب فتزوج شبانها من بناتها حتى ضعف النسل وكثر البلاء والزمنى والمرضى فيهم وربما عضل كثير من الناس بناتهم

ومنهم عن الزواج استبقاء للارث في الذكور دون الاناث وكثير من الاسر تحرم الاناث ارثهن وتعاملهن معاملة البهائم ولذلك تعطل جانب عظيم من الامة وهم النساء وظلمهن الرجال أى ظلم فلم يفكروا في تعليمهن حق التفكير ولا في سعادتهن الحقيقية كأن المرأة خلقت بلا نفس كما كانوا يعتقدون في القديم في بعض بلاد الافرنج

ومن دواعي الانحطاط أن الهمة في الفرد عندنا لا تنبعث الى أقصى حدودها فاذا تذوق المتعلم لملاحظة من العلم يظن من نفسه الغناء في كل علم ويكتفى بما لقنه في صغره فلا يعمد الى البحث والنظر وتنمية معلوماته وإيجاد الجديد واختراع المفيد بل يعتقد أن العمل كله في المدرسة فاذا انتهت أيامها فليس له الا الراحة واستثمار ما تعلم فجاء متعلمونا رسطاً في كل شيء . والوسط لا يعمل عملاً في هذا المجتمع البشرى . وكذلك الحال في الصانع والمهنة والزراع فأصبحنا أمة لا ترى فينا مالياً متفناً ولا زارعاً من النمط الاول ولا رساماً نابغة ولا نقاشاً ولا كيميائياً ولا ميكانيكياً ولا غير ذلك ممن تشتد حاجة العمران الى تكثير سواد العاملين فيه ولذلك ندر فينا النوابغ وانقطع سند هذه العلوم من الامة فجاءت عليها قرون وهي تحسب أن العلم كله محصور في بعض العلوم الدينية واللسانية وعندهم ان من روى حديثاً نبوياً أو شارك في مسألة من فروع الفقه أو قرض بيتين من الشعر عد محدثاً أو فقيهاً أو أديباً

ومن بواعث تدلينا في سلم الاجتماع اننا لانحسن العشرة ولا نحسن الاجتماع وذلك لاختلافنا في طرق التربية لأن ابناء الوطن الواحد لا يرمون في تعاليمهم الى مقصد معين فاذا حللنا تحليلاً كيمياوياً دقيقاً نجد الامراء المتعلمين منا لا بأس بهم بالنسبة للمجموع هنا بل بالنسبة للمتعلمين من الغربيين ولكن اذا جئت تنظر فينا مجتمعين تكبر علينا أربع تكبيرات ولذلك جاء كل عمل يقدم بعناية الجماعة عندنا منحطاً أكثر من عمل الفرد على خلاف سنة الامم . من أجل هذا لم تنشأ لنا حتى اليوم جمعيات ولا مجامع ولا مجالس ولا شركات تجمع من القليل كثيراً وتضم متفرق القوى ومشتت القرائح والافكار فتعطي المعالم وتفيد البلاد في اقتصادياتها ومعنوياتها . هذا القول في الرجال فما الحال بربات المجال

اللائي ضاهين في الغرب الرجل في علمه وعمله الا قليلا وانحططن عندنا أي انحطاط بعد ان كان منهن عندنا المفسرة والمحدثة والراوية والشاعرة والادبية والطبيبة والواعظة والخطيبة المؤثرة

قال صاحب روح الشرائع : اذا أردت أن تعرف ملكات أمة من الامم مادية كانت أو أدبية فارجع الى إدارة التربية فيها وتوزيع الخدم ونشر المكافأة وتوقيع العقوبات تعلم ماتريد . وقال انظر الى بلد كثرت فيها المظالم وامتد بقاؤها وارتفعت ثقة المالك فيما ملكت يمينها ترى الزارع تسقط همته وتنحل قوته وان استمر على الزراعة فلا كيلا لا يموت جوما كانما يطلب من الكسل مسليا على آلامه ومصائبه وكذلك تسقط الصناعة لسقوط الامل في النجاح وينبت الشوك في أجود الاراضى

وقال فوليه : لنشوء الشعوب على ما أبانه الدروينيون طريقان : الجماعة والانتخاب الطبيعي فالشعب في الحالة الاولى خاضع لتأثيرات متشابهة من المحيط والاقليم وفي الحالة الثانية يعيش فيه بعض أفراد فقط يكون نظامهم الخاص عونا لهم على التمثل والاحتذاء فيعيشون ويتركون لهم أنسالا وهكذا يتحول المجتمع باطراح بعض الاسرات وبعض العناصر الخاصة ويعمل الانتخاب الطبيعي على كل سرعة أكثر من المحيط والاقليم ولكن يهلك في سبيله كثير من الخلق فلا يتوهم متوهم أن شعباً ينتقل بمجموعه من الشباب إلى سن الرشد ثم إلى الشيخوخة بل ان الشعب يرتقى بواسطة الانتخاب الطبيعي وتحكيم الصفات التي تحمي الأفراد ومتى ظهر الهرم والسقوط تصبح أحسن مقوماته وقد دأمتها عناصر أصغر منها ونزلت منازلها

قال : وعوامل الانتخاب الطبيعي التي تجرى بين الشعوب المختلفة هي الحرب والاستعمار ونمو السكان والمنافسة في التفوق الاقتصادي والسياسي والعلمي . أما عوامل الانتخاب الطبيعي التي تفعل في نفس الأمة فهي الحرب والخدمة العسكرية وتنقل الافراد في ربوع الوطن الواحد ونحو سكان المدن وعقوبة المجرمين ومعاونة الفقراء والمحاويج وتشريد المسيئين للدين أو لغيره واضطهادهم وانتشار الشغاعات السياسية كأن لا يحمي صاحب الشأن غير جماعته وجملة حاشيته

والنفور السياسي والفردية والشرائع والمادات والافكار الاجتماعية والدينية بشأن الزواج واجتماع الجنسين الذكر والانثى و ارادة النهوض . هذه أهم العوامل التي تنمى أمة أو تقرضها وتحسن سيرها أو تسيئته

وبعد فان الناظر في ماضى الامة العربية وحاضرها يدهش للفروق الكثيرة المحسوسة وعند ما يشاهد جرائم النهضة وعوامل الحياة تنشر وتذب في جسمها اليوم يعتقد بان الحاضر سيكون على مثال الغابر أو أجهل منه وعلى طريق نافع والامل معقود في هذا الشأن على المعلم والمعلمة فقد قيل : لولا المرءى ما عرفت ربى .

لاجرم أن الغيور على قوم يفادى بكل نفيس ليحمل اليهم الخير والكامل من سعى الى تكميل غيره وان كان ناقصاً والجاهل في ذمة العالم له عليه حق التعليم والاشراك في النعمة .

أنتم أطباء أرواح . والارواح تفضل الاشباح . فهل عهد طبيب لا يعالج حتى عدوه بما يصلحه وينفمه في صحته دع صديقه وأخاه وابنه وابنته . بايدكم إصلاح هذه النفوس الضعيفة المنحطة في معارفها وتربيتها وترقية مستوى البيوت وثقوا أن فتى واحداً وفتاة واحدة اذا تعلم وتهذب يدخل على أسرة كبيرة النظام وفي الجملة يلقنها الشعور بالحاجة الى التعلم أى أنه يسوق آله الى أول مراتب الكمال وكل هذا العمل الجليل هو عمل المعلم والمعلمة لا محالة .

وربما كان واجب المعلمة في هذا الشأن أعظم من واجب المعلم لان مجموع النساء عندنا في الغاية من الانحطاط ولاعبرة بالقليلات المتعامات منهن وأكثر ما تعامن حتى الآن القشور ولم ينفذن فيه الى اللباب على ما يجب . وأى وطنى لا يبكى لجهل المرأة المسامة علة العمل في انحطاط المجتمع الاسلامى ومن منا ينكر تأثير المرأة في كل نهضة . وهذه المرأة المصرية والمرأة التركية قد أنيا في الحوادث الاخيرة ما دل على أن القوم في القاهرة والاستانة أخذوا بخط وافر من العناية بالمرأة وما أحرانا في الشام أن نحتذى مثاهم وهذا قريب الحصول اذا قام المعلم والمعلمة بواجبها حق القيام والسلام

## اعداء الاصلاح

الطرق شتى وطرق الحق مفردة والسالكون طريق الحق افراد لا يعرفون ولا تدري مقاصدهم فهم على مهل يمشون قصاد والناس في غفلة عما يراد بهم فجلهم عن سبيل الحق رقاد ما خلا عصر من عصور الاسلام من اعداء لكل جديد ومن جامدين ينكرون كل ما لا يألون . فقد لقي الممثلة والفلاسفة والمتكلمون والنظار من اعداء العقل كل شدة في القرون الراقية ، وكان عقل الملوك هو الذي يحول على الاغلب بين الجامدين وبين ما يشتهون ، من الاعتداء على القائمين بتأييد سنن العقل ، والناصرين بأقوالهم وأفعالهم مذاهب السنة والنقل . ومن نظر نظرة مجردة عن الغرض في سيرة المناهضين للمصلحين على اختلاف الأعصار ، يجدهم جروا على غير ما يعتقدون وطلبوا بمقاومة المصلحين ارضاء العامة ونيل الحظوة لديهم ، واستتباع الجاهلين من الملوك والسلاطين ، وقليل جداً من كان الاخلاص رائدهم في اعمالهم وما آتاهم .

يقاوم في المادة الخامل النابه لتكون له مكانة كمكانته ، ويتحامل الجاهل على العالم ليعرف بين قومه بأنه قسيمه في صناعته ، ومثيله في فضيلته ، ويطنع الجامد الممخرق على من يجب أن يعبد الله بعقل ، ويبحث في عالم الكون والفساد بروية ، ليتظاهر بأنه بصيد الغور شديد الغيرة ، وما أقواله الأرياء ، وما افعاله الأوساوس وأهواء .

لقي المصلحون من الأهاويل في الأمة العربية أكثر مما لقيه أمثالهم في الأمم الأخرى فيما نحسب ، وخصوصاً بمد القرن السابع وقد توزعت بلاد الاسلام ملوك الطوائف ، وكان أكثرهم على جانب من الجهل والغباوة لا يهتمهم الارضاء المشعبدن بالدين ، ليحولوا العامة اليهم فيقوى بهم ضعفهم ، ويستعينون بهم على تكبير رقعة ممالكهم ، وبسط ظل سلطنتهم على النفوس فيستمتعون بشهواتهم وبذخهم ورفاهيتهم .

عجبت لمبتاع الضلالة بالهدى ومن يشتري ديناه بالدين أعجب  
وأعجب من هذين من باع دينه بدنيا سواه فهو من ذين أعجب  
ساعد على الانتقام من العالمين العاملين أناس من أرباب المذاهب سرت احكامهم  
بقوة أربابها ، فكان الحكم يجري على المبتدعة وأرباب الاهواء يزعمهم بموجب  
قوانين لهم سنوها ، ومنها المذهب المالكي الذي كان بحكم قاضيه يقتل أكبر عالم  
في الأمة - والقتل يعد من التعزير في مذهب مالك - خالف المؤلف من العادات  
التي اعتقدتها من أصل الدين ، وعد الخروج عنها كفراً والحاداً ، وما أسهلهم  
وأسهل صدور الحكم بهما من اعداء الاصلاح المباحكين  
سالت الدماء كالأودية في بغداد للفن بين الحنابلة والشافعية مرات ، وسالت  
دماء كثير من الخاصة في كل قرن وعذبوا وأوذوا بواسطة أرباب المظاهر من  
المنتظمين ، ممن شق عليهم ان يروا كلمة الاصلاح الديني والدينيوي تفعل في الارواح  
فعلها المطلوب ، فحدثهم أنفسهم ان يتساوى المفكرون وغيرهم في نظر العامة  
ان لم يتمكنوا من اسقاطهم ، ليخلو لهم الجو . ويقتصر في تقبيل الأيدي ، وطلب  
الدعوات ، والتماس البركات ، عليهم دون سائر المنتسبين للعلم والشريعة .  
ومن غريب اسرار الله في خلقه ان جميع من قاوموا المخلصين من المصلحين  
دثروا ودثرت اسماؤهم ، وظلت اسماء من عادوهم وآذوهم تشهد بالجهل المركب  
على اعداء العقل السليم والتعاليم الصحيحة  
أبن اعداء الفزالي والسهروردي والآمدى وابن جرير وابن تيمية وابن رشد؟  
ذهبوا كلهم كأمس الدابر ، وبقيت الامة تردد على وجه الدهر أسماء هؤلاء  
المصلحين العالمين ، وتتناقل ما خطته أناملهم من سطور الاصلاح « فأما الزبد  
فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض »  
لا يذكر التاريخ اليوم إلا افراداً ممن ناوأوا رجال العقل الرجيع ، والنقل  
الصحيح ، اشتهروا لاحتمكا كهم بالحكام وموهوا على العامة بحسن حالهم لمظهر  
دينيوي أرادوه وحطام من الدنيا تطالت نفوسهم لان يقتنوه كأن يكون أحدهم  
قاضياً يخاف أن يشركه ذلك العالم المستنير في قضائه ، أو شيخ عامة حديثه نفسه  
بالاستئثار بهذا المظهر الذي يعتقده جماع فضائل الدنيا والآخرة .

أمثال هؤلاء الممخرقين المنافقين ، بدلوا العالم والتعاليم مرضاة لارباب  
الرئاسات والزعامات ، وسججوا على أنفسهم العار للبت فيما لم ينزل به سلطان ،  
وجازوا حد الشرع وهم يتظاهرون بأنهم المؤمنون عليه ، ومنهم ومن أعمالهم  
يشكرو ويئن كما تشكو المدنية والانسانية

وهل أفسد الدين الامور كـ وأخبار سوء ورهبانها  
ان من يتظاهرون بالدين وباطنهم منه برىء أضر على الدين ممن يعقونه . ومن  
يدعو في الغالب الى الاصلاح ويتخذ التقية أمام العامة درعه ، يكون أقرب الى  
الانحلال والضلال ، منه الى من لا يطنطنون بأنهم دعاة الدين والقائمون عليه ،  
وعنهم يؤخذ ، وبهديهم يبتدى . وشر الناس من يسرون غير ما يظهرن ويتلونون  
باللون الذي يرون أنه أوفق لهم لجر مغنم ، واحراز مظهر

ان هؤلاء العامة ممن يتطلون الى مقامات العلماء ، هم أفسد من العامة لأن  
شيطانهم يتكلم ، وشيطان هؤلاء أخرس لا يبدي ولا يعيد . هم سوس الفساد  
في كيان هذا المجتمع ، يدعون معرفة كل شيء وهم لم يتقنوا شيئاً الا ما سولته  
لهم أنفسهم ، وحدثتهم به شياطينهم . شعارهم التديس والتظاهر بالغيرة على المحارم  
ولو بحثت عن اعمالهم لرأيتهم أول المجترئين على انتهاك حرمت الأديان والشرائع  
وهم يقدسونها بلسانهم ، والعابثين بحدودها ، وهم يدعون الناس الى الوقوف  
عند مراسيمها ، والسعاية بالمصلحين ليفتوا في اعضادهم ، ويفسدوا عليهم أمرهم ،  
ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره أبالسة التدجيل والتضليل من علماء السوء

لو كان اعداء المصلحين على شيء من التدين الحقيقي ، لكانوا اشتغلوا منذ  
القديم بارشاد العامة وانكار المنكرات الماثلة في كل عصر أمامهم مثل الشمس  
في السماء راد الضحى . ولكن المتداسة أمثالهم يتعاملون من قشور العلوم ما  
يستعينون به على الاخذ من اموال الحكومات والاغنياء والتفجير بالعامة ،  
ولذلك كان أكثر اشتغال من سموا أنفسهم بالعلماء في كل عصر بالفقه ، لانه سلم  
الى ما يتناولون اليه من الجاه والمال وحسن الحال

قال حجة الاسلام الغزالي في الاحياء : « اعلم ان الخلافة بعد رسول الله  
صلى الله عليه وسلم تولها الخلفاء الراشدون المهديون ، وكانوا أئمة علماء بالله

تعالى فقهاء في أحكامه ، وكانوا مستقلين بالفتاوى في الأقضية فكانوا لا يستعينون بالفقهاء الا نادراً في وقائع لا يستغنى فيها عن المشاورة . فتفرغ العلماء لعلم الآخرة وتجردوا لها . وكانوا يتدافعون الفتاوى وما يتعلق بأحكام الخلق من الدنيا ، وأقبلوا على الله تعالى بكنهه اجتهادهم ، كما نقل من سيرهم ، فلما أفضت الخلافة بملهم الى أقوام تولوها بغير استحقاق ولا استقلال بعلم الفتاوى والاحكام . اضطروا الى الاستعانة بالفقهاء ، والى استصحابهم في جميع أحوالهم لاستفتائهم في مجارى أحكامهم ، وكان قد بقي من علماء التابعين من هو مستمر على الطراز الاول وملازم صفو الدين ومواظب على سمات علماء السلف فكانوا اذا طولبوا هربوا وأعرضوا ، فاضطر الخلفاء الى الالحاح في طلبهم لتولية القضاء والحكومات فرأى أهل تلك الاعصار عز العلماء وإقبال الأئمة والولاء عليهم واعراضهم عنهم فاشربوا لطلب العلم . توصلوا الى نيل العز ، ودرك الجاه ، من قبل الولاة فاكبوا على علم الفتاوى ، وعرضوا انفسهم على الولاة وتعرفوا اليهم وطلبوا الولايات والصلات منهم ، فمنهم من حرم ومنهم من أنجح والمنجح لم يخل من ذل الطلب ومهانة الابتدال فأصبح الفقهاء بعد أن كانوا مطلوبين طالبين ، وبعد أن كانوا أعزة بالاعراض عن السلاطين ، أذلة لإلأمن وفقه الله تعالى في كل عصر من علماء دين الله

وقد كان أكثر الاقبال في تلك الاعصار على الفتاوى والأقضية ، لشدة الحاجة اليها في الولايات والحكومات ، ثم ظهر بعدهم من الصدور والأمرء ، من يسمع مقالات الناس في قواعد العقائد ، ومالت نفسه الى سماع الحجج فيها فعلمت رغبته الى المناظرة والمجادلة في الكلام ، فاكب الناس على علم الكلام ، وأكثروا فيه التصانيف ، ورتبوا فيه طرق المجادلات ، واستخرجوا فنون المناقضات ، في المقالات ، وزعموا أن غرضهم الذب عن دين الله ، والنضال عن السنة ، وقع المبتدعة ، كما زعم من قبلهم أن غرضهم بالاشتغال بالفتاوى الدين ، وتقلد أحكام المسالمين ، اشفاقاً على خلق الله ونصيحة لهم ، ثم ظهر بعد ذلك من الصدور ، من لم يستصوب الخوض في الكلام ، وفتح باب المناظرة فيه ، لما كان قد تولد من فتح بابه من التعصبات المناحشة ، والخصومات الفاشية ، المنفضية

الى اوراق الدماء ، وتخريب البلاد ، ومالت نفسه الى المناظرة في الفقه ، وبيان  
الاولى من مذهب الشافعي وأبي حنيفة رضي الله عنهما على الخصوص فترك  
الناس الكلام وفنون العلم ، وانثالوا على المسائل الخلافية بين الشافعي وأبي حنيفة  
على الخصوص ، وتساهلوا في الخلاف مع مالك وسفيان واحمد رحمهم الله تعالى  
وغيرهم ، وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع ، وتقرير علل المذهب ،  
وتمهيد أصول الفتاوى ، وأكثروا فيها التصانيف والاستنباطات ، ورتبوا فيها  
أنواع المجادلات والتصنيفات ، وهم مستعمرون الى الآن ، وليس ندرى ما الذي  
يحدث الله فيما بهدنا من الاعصار . فهذا هو الباعث على الاكباب على الخلافات  
والمناظرات لا غير . ولو مالت نفوس أرباب الدنيا الى الخلاف مع امام آخر من  
الائمة أو علم آخر من العلوم لمالوا أيضاً معهم ، ولم يسكتوا عن التعلل بان  
ما اشتغلوا به هو علم الدين ، وأن لا مطلب لهم سوى التقرب الى رب العالمين اه  
هذا موجز من تاريخ المتحذلقين في الدين ، وصف به حجة الاسلام طغمتهم  
في عصره ، وعصره الخامس من أفضل عصور النور في الاسلام ، فما بالك بامثالهم  
بعده وقد حدثت من الاحداث ما كان الجهل سداها ولحمتها ، والنيل من المخلصين  
مبدأها وغايتها ، وما أصدق بماقاله حجة الاسلام أيضاً في هؤلاء الطغام أعداء  
الاسلام والسلام في أول كتابه التفرقة بين الاسلام والزندقة قال : « وأنى  
تتجلى أسرار الملكوت لقوم إلههم هواهم ، ومعبودهم سلاطينهم ، وقبلتهم  
دراهمهم ودنانيرهم ، وشريعتهم رعونتهم ، واراتهم جاههم وشهواتهم ، وعبادتهم  
خدمتهم أغنياءهم ، وذكرهم وساوسهم ، وكنزهم سواسهم ، وفكرهم استنباط  
الحيلة لما تقتضيه حشمتهم ، فهؤلاء من أين تتميز لهم ظاهمة الكفر من ضياء  
الايان ، أباهام إلهي ، ولم يفرغوا القلوب عن كدورات الدنيا لقبولها ، أم بكال  
علمي وانما بضاعتهم في العلم مسألة النجاسة وماء الزعفران وأمثالها ، هيئات هيئات  
هذا المطلب أنفس وأعز من أن يدرك بالمتى ، أو ينال بالهويناء ، فاشتغل أنت  
بشأنك ، ولا تضيع فيهم بقية زمانك . ( وأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد  
الا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو  
أعلم بمن اهتدى )

وبعد فان في هذا العصر فئات في هذا الشرق ممن استعاذ منهم المصلحون في كل عصر ، ولكنهم ويالأسف حثالة الحثالة ، ومثال الجهالة والضلالة ، ان قلت لهم تعاليم فلان ، قالوا لك أو نسيت تعاليم فلان فهى أحسن وأسلم ، وان حرختهم على علم كذا قالوا علم كذا أفضل ، وان شرحت لهم أساليب المدنية ، قالوا اننا لم نؤت الا من قبل ديننا فتركناه فصارت حالنا الى ما ترى ، وان حدثتهم بطرق الارتقاء قالوا انه يدعونا الى الانحلال كانه ما كفانا ما نحن فيه من البدع ، وان دعوتهم الى الاخذ بما صحح من أحكام الحلال والحرام ، أوردوا لك من أقوال شيوخهم ، وأقاصيص عجائزهم ، وأحلام حالميههم ، ومثبطات المتزهدين والمتورعين منهم ، ماتسأل الله معه السلامة ، وان حبيت اليهم المعروف ، قالوا لك ما أكثر المنكرات .

جملة أهواء ، لاجملة شريعة ، وجماب لغو وحشو ، لاقوام على ما يقوم العقل ، سلاحهم المغالطة ، ومجنهم السفسطة ، رأس ما لهم الثرثرة ، وربحهم الغلبة بالباطل ، والمهارة فى المهارة على غير طائل ، مناهم من دينهم وديناهم ، ان تفخم القابهم ، وتملاً كراشهم وعبابهم ، وترفع بين النفاغة منازلهم ، ويزيدوا بسطة فى الجسم لافى العقل ، وتكتب لهم فى المالمين شهرة بعيدة ، بدون ان يعدوا لها أداة من أدواتها ، ويصرفوا فى التحصيل ساعة من أوقاتهم ، دأبهم الخط من الفضلاء ، وهجيراهم النيل من العطاء

يرقعون ويلفقون ، ويراوغون ويماحكون ، واكسون ما كسون ، مدلسون موالسون ، يعادون ما يجهاون ، يجمدون على ما يعرفون ، يصانعون ولا يتلطفون ، يفتون وهم لا يعلمون ، يجتهدون ويخطئون ، يهرفون بما لا يعرفون ، يعدون علوم البشر ذرة من معارفهم ، ويحتقرون مالا تبلغه مداركهم ، كأن فضل الله محصور فيهم ، وكأن من لا يجرى على هواهم محروم من السعادة هالك ، أولئك هم ثمالب الانس يأكلون لحم اخوانهم بالغيبة والوشاية ، ويمشون بين الناس بالنخيمة والسعاية ، أسود ولكن على نحت أثلاث مخالفهم ، نور ولكن لا يحسنون الوثب الا على من لا يصلحون خدمة لهم . يفترون ويفرون يفوون ولا يخافون ، يخربون ولا يدرون ، يخرفون ولا يستحون ، يمخرقون ولا ينتهون ، فهم أضر على

الناس من قطاع السابلة ، وأفسد في جسم المجتمع من الادواء القتالة ، يرجعون بالامة القهقري ، والدواعي تهيب بها الى التقدم ، ويزينون لها الفناء والعدم ، والمصلحة قاضية بالتماسك والتعاون ، ويملون لها الذل والصفار ، وركوب متن العار . والحالة تدعوا الى تحكيم العقل ، في كل قول وعمل  
فلاهم ثبت أقدام المصلحين ، وهي لهم من الكفاية ما يقوون به على رد غارات أعداء الامة في إصلاحها ، فقد كفها جاهلا وضلة بما كسبت أيدي المنافقين وما جلبوا عليها من الخزي المبين ( وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً . . . والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً )

## تعليم اللغات<sup>(١)</sup>

ان تعليم اللغات على الطريقة التي جري عليها الغربيون واقتبسها المشاركة قد تكون نظرية أكثر مما هي عملية ، فيطول أمرها ويصعب تناولها ، ولطالما رأينا من يترجم أشعار سكسبير الانكليزي أو بوالو الافرنسي ، اذا رمته الاقدار في شوارع لندن أو باريز لا يطاوعه لسانه أن يلتقط كلمات يهتدي بها لوجه طريقه ذلك لان الطريقة في تعلمه تلك اللغة الاجنبية هي عين الطريقة التي يستخدمها الاوربيون في تعليم الصم البكم بل عين النهج الذي يتهجه المفاربة في تعليم إحدى اللغات الميتة من لاتينية ويونانية ، أو إحدى اللغات الحية من انكليزية وفرنسية وإيطالية وغيرها . اذ يكون تدريس النحو والصرف والترجمة من الكتب هو العدة في اتقان اللغات ويسهل على المعلم أن يدرس تلميذه على هذا النحو وربما أخذ في تعليمه لغة وهو لا يحسن أن يؤلف بين جملتين صحيحتين في تلك اللغة التي عهد اليه تدريسها ، ولم يجود التلفظ بها فكان شغله الشاغل تعليم تلامذته

(١) نشرت في العدد الاول من مجلة المقتبس الصادر سنة ١٣٢٤ و ١٩٠٦

أصول التصريف والاعراب والترجمة على حين قد ثبت أن المدارس قد يستظهر قواعد لغة وقوانينها ولا يبرع في اللغة نفسها . وأسقم المذاهب في تعلم لغة أن يتكلم المرأ بلغته في خلال تعلمه لغة غيرها .

من أجل هذا قضت الحال أن تكون دراسة قواعد الاعراب والتصريف يبدأ معرفة اللغة معرفة عملية لا نظرية ، ولا تفيد الترجمة والنقل الا اذا توفرت للطالب باديء بدء معرفة الاساليب في اللغة القريبة . فعلى من رام أن يتكلم لغة ويكتب فيها أن يفكر في تلك اللغة ويكون شعوره شعور أهلها فيها . لا أن يصيغ تراجم وينقل جملا . فتستدعي الافكار والافعال للحال ما يحتاج اليه الطالب من الالفاظ التي يعبر بها عنها ، فتصير اللغة التي يتعلمها لغة ثانية له . ولا تكون الترجمة من لغته أو اليها اذا دعت الحال حرفا بحرف ، بل على طريقة تنقل بها الصورة الى التعبير عنها . وقما يسمع المتعلم في معظم المدارس اليوم صدى اللغة التي يتعلمها ويقتضى له أن يربى عليها أذنه وذاكرته ما أمكن . وما أشبه المدرس وهو يشرح للدارس دروسه بلغته الأصلية إلا بأمر تود أن تعلم طفلها وهو الكن تمام قواعد الفعل الماضي وتصريف الافعال الشاذة بدلا من أن تعنى بتعليمه أن يحسن تلفظ الكلمات الاولى التي يحاول التلفظ بها .

وما فتىء تعلم اللغات يختلف باختلاف الاجتهاد في كل قوم ومعظمه دائر في الغرب منذ ثلاثين سنة على طريقتين وهما إما أن يقيم المتعلم زمناً في بلد اللغة التي يريد تعلمها أو أن يكون أهل الطفل في سعة من العيش فيتخذون له مؤدباً أو مؤدبة يعلمه اللغة بالمعمل بين ظهرائي أهله وأسرته . وقد ابتدع الاستاذ برليتز الامريكاني طريقة سهلة لتعليم اللغات جرى عليها بعضهم في أميركا وأوربا فأسفرت عن نجاح أكيد . وطريقته عبارة عن نظر عقلي وعلم عملي . وبلفظ آخر نظر في المحسوسات لا المجردات اذ اللغة عبارة عن أصوات محكية لا اشارات مكتوبة . والتعليم سماعي أولاً ثم نظري . ولا يعمد في طريقته الى الترجمة ولا الى النقل ولا يستخدم فيها الطالب معجماً ولا يستصحب كتاب قواعد بل يتعلم الانسان القوانين بعد كمال المعرفة العملية على نحو ما يتعلم الطفل لغة أبيه وأمه . وليس لتعلم القواعد نفع حقيقي الا متى عرف المرأ اللغة . فالقواعد

تشرح اللغة شرحاً علمياً فتبحث عن علل يتأتى الاستفناء عنها بادىء بدء وقاما تنفع في تلقين اللغة شأن المصور لا يحتاج الى اتقان العلوم الطبيعية والكيمائية ليصنع صوراً شمسية بديمة .

ماللغة في الحقيقة الا صورة محكية من الحياة فاقضى في تعلمها أن يسير الانسان من نفس الحياة لا أن يعتمد الى اشكال من ، التعبير لا تمس ولا تتحرك وكلما تتلاءم الالفاظ وصور الافكار بين لغة وأخرى كل التلاءم فالبدء بالترجمة الحرفية من لغة الى لغة يراد تعلمها إضاعة للوقت والعباب للذهن على غير طائل ومن المسر المقتدر أن يرسم المرء صورتين رسماً خفيفاً على حين لا يضع احدهما على الاخرى . وكذلك الحال في اللغات فقد امتنع أن يحكم وضع لغتين احدهما على الاخرى .

واللغة بموجب هذه الاصول الجديدة عبارة عن محادثة دائمة باللغة القريبة . فكل ما يقع نظر التلميذ عليه مباشرة يكون له منه مادة درس وموضوع تعلم . وذلك بتربية الاذن والحواس الصوتية . فيلقن الاستاذ تلميذه حسن اللفظ وسرعة التركيب فيدرس الافعال الاولى بالاعمال والحركات : يقوم ويذهب الى اللوح الاسود فيكتب أو يفتح الباب ويرفع الكتاب ويضمه ثم تعرض على سمعه مشاهد الحياة اليومية فيسهل عليه تأليف جملة صغيرة يتزايد كل يوم عددها بسرعة فيكون التلميذ بهذه الطريقة في تأليف الجملة ما يلزمه من أوليات القواعد والروابط . والأمم بأسرها تتعلم لغاتها بالعمل أولاً ثم بالنظر . فيتعلم المتعلم ما تمس حاجته اليه الى أن يكتب بدون غلط أو يتعلم التلميذ أولاً معاني الكلمات القريبة ثم يلقى التمرينات العديدة بعد معرفة اللغة معرفة فطرية فمعرفة عقلية . ومن اللازم اللابزب الاعتياد على الصور قبل القواعد . ثم يبدأ المعلم بالسؤال فيجيبه المتعلم ولا يزالان ينتقلان من البسيط الى المركب ومن شرح المفردات الى تفسير العبارات ويكون كل ذلك باللغة التي يراد اتقانها

وللفظ في هذه الطريقة المقام الاعلى . ولم يكن يعنى بتقديمه من قبل . والاساتذة الذين يحسنون التلفظ بلغة ما هم ممن تعلموها من الاسلوب الطبيعي في طفوليتهم أو أتقنوها بمقامهم في البلاد التي تتكلم فيها تلك اللغة . وجودة التلفظ هو روح

اللغة على التحقيق . ولا تعد العبارة شيئاً مهما بلغت من الضبط متى قبح اللفظ وتجلت الابهجة الاعجمية فيه عياناً . ومن المؤكد ان التلفظ لا يكاد يصلح اذا فسد لأول مرة . وصعب على الانسان ما لم يهود . فالطريقة المشار اليها مغايرة لطريقة الترجمة المألوفة في الاغلب . اذ كل معرفة يرشد اليها المتعلم على هذه الصورة لا تحسب ناقصة الجهاز مشوشة الاسلوب . وقلما تجد الالفاظ في لغة ما يقابلها في لغة ثانية ولكل لغة اصطلاحاتها الخاصة بها ليس للترجمة مهما أتقنت أن تنقلها على أصلها إذ التصورات التي تمثلها لغة لا تتحد مع تصورات تمثلها ألفاظ لغة أخرى اتحاداً ذاتياً معني ومبني . كتب أحد الغرباء الى فنلون العالم الفرنسي المشهور ( أن لي منك يامولاي أمعاء والد ) يريد أن يقول « قلب والد » وقال الغونس الثاني عشر ملك أسبانيا وقد جاء قصره في يوم احتفال ! « أتود أن تتعب معي نحو النافذة » يعني بذلك أن تقترب نحو النافذة .

ولو تعلم ذلك الكاتب وهذا الملك أن يتكلموا الفرنسية على طريقة الاستاذ برليتز إذا لنجيا من هذا الغلط الشائن وكان شأنها في سهولة التعبير وجودة التصوير شأن أولئك التجار والسوقة ممن ينزلون بلاداً لا يحسنون لغتها فهاهو الا قليل حتى يمرنوا على تكلمها زمناً فيحسنونها ولا احسان من تعلموها على دكات المدارس وهم يقلبون المعاجم ويتأبطون كتب نحوها وصرفها وبيانها ناقلين ناسخين مستظهرين ناسين . وطريقة برليتز هذه أن يستعمل أولاً اللغة المتعلمة خاصة وأن يتابع التصور في اللغة الغربية مباشرة بدون وساطة اللغة الاصلية وأن تعلم أسماء الاعيان بقوة الحس وتعلم اسماء المعاني بتتابع التصور أو يدرس النحو بالامثلة والشوهد

هذا مذهب الاستاذ برليتز في اتقان ملكة اللغات وقد انتقل من نيويورك الى باريز عام ١٨٨٩ فأسست في هذه العاصمة أول مدرسة على تلك الطريقة وانتقل هذا المذهب في تلك السنة الى انكلترا وألمانيا فأسست في كل من لندن وبريس مدارس لهذا الغرض وما برحت مدارسها تتكاثر في الاصقاع الاوربية حتى كانت في بدء هذه السنة ٣٤٣ مدرسة في أوروبا وحدها وكلها أسفرت عن ارتقاء واقتصاد في الوقت والمال . وطريقة القائمين بهذا الامر أن يكون لكل

تلميذ استأذنه الخاص به فيأخذ هذا يعلم تلميذه ما يقع نظره عليه في قاعة الدرس من منضدة وكرسى وكتاب وباب ونافذة يلفظها بلفظها ولا يزال يكررها المتعلم حتى يتقن التلفظ فاذا نفذت المسميات لدى الاستاذ في الفرفة يعمد الى صور سهلة واضحة رسمت على صفحات مجموعة فها هو الا أن يتعلم التلميذ أسماء الاشياء الواقعة تحت بصره مع الالوان التي يمتاز بها كل منها ثم ينتقل الى صفات الجسم وأفعال الحركات والاعداد . فاذا أنجز درس الاشياء يشرع المعلم في اختيار جمل يكون التلميذ قد عرف أكثر مفرداتها . فلا يمضي ثلاثون درساً الا وقد عرف التلميذ الافعال الشائعة في الاستعمال والمفردات التي تدخل غالباً في الاحاديث العامة ويتمكن في ستين درساً من بيان فكره أصح بيان في كل حالة علاقة بمجرى الحياة الاجتماعية العادية . ويحسن في اختيار المعلمين أن يكونوا ممن لا يعلمون لغة المتعلم .

ومما يضحك ما وقع لولد أحد كبار المنشئين الفرنسيين وكان يدرس الالمانية على طريقه برلينز قيل انه لما بلغ به المعلم الى تمييز الفعل الممتدى من اللازم لم يفهم التلميذ المراد من الممتدى واللازم وأخذ معلمه يشرحه له بالاشارة تارة والتشبيه تورا فلم يفلح وكان تلميذه معه كأعجم طمطم لا يفهم ولا يفهم . وأبى الاستاذ على تلميذه أن يفسر له شيئاً بلغته مع الخاحه عليه في ذلك وراح الطفل الى دار أبيه وقد بلغ منه الفيظ وأنشأ يقلب كتاب نحوه يفتش عن الاشكال فاهتدى بنفسه الى حله وشكا أمره الى والده فقال له : أي بنى لقد احسن الاستاذ أن أبى عليك شرح ما يريد تعليمك بلغتك ولو قاله لك لعزب عن ذهنك وأصبح لديك بعد زمن نسياً منسياً . أما الآن فاني على ثقة من انك لاتنس التفرقة بين الفعل اللازم والممتدى ولو بعد مئة سنة .

قال الكاتب الذي عربنا عنه أكثر هذا المبحث وقد كان أرباب الافكار والخصافة يجمعون على أن اللغات الحية لاتعلم كاللغات الميتة بل انه لايد في الاولى من المران على التكلم بها من أول وهلة وانه مامن لغة مها تراءى من صعوبتها على المتعلمين لاول الامر سواء كانت اللغة الروسية أو الهندية أو العربية أو الصينية الا ويتيسر اتقانها على طريقة برلينز في مدة تختلف باختلاف ذكاء المتعلم وصعوبة اللغة والله أعلم .